سالمة صالح

الهاوية

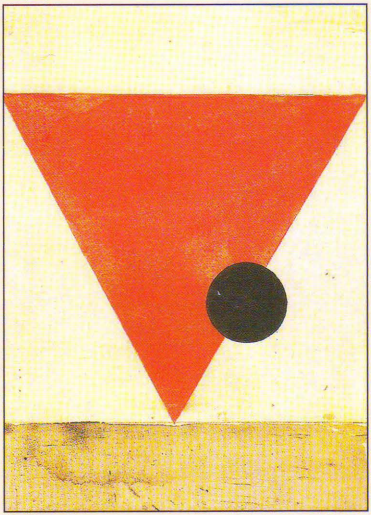

منشورات الجمل

رواية

سالمة صالح

الهاوية

رواية

منشورات الجمل

سالمة صالح: **الهاوية**، رواية، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2014
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

لم تكن الحرب قد بدأت بعد. لم تكن أي من الحروب العديدة قد بدأت. وكان حسن التمار قد أنهى دراسته في جامعة بغداد للتو. وحصل على عمل كمحرر في جريدة المساء. جاء ذات نهار إلى مقهى الخفافين، تلفت مرتبكا مثل طفل أضاع أمه، ثم وقع بصره على مالك القسري، كان يعرفه كما يبدو، فقد اتجه إليه مباشرة، انفرجت أساريره وشعر بالاطمئنان. قدمه مالك القسري إلينا على أنه شاعر فاتخذ مجلسه على المقعد الشاغر بيني وبين رياض عبدالرحيم. ولم يربك حضور القادم الجديد الحلقة فتابعنا الحديث عن الهجرة من الريف إلى المدن وتوسع المدينة العشوائي وحين كنا قد انتقلنا إلى الحديث عن تخطيط المدن نظر مالك في ساعته ثم نهض وقال إنه سيمر على مقهى حسن عجمي لأن صديقا له وعده بنسخة من كتاب «مذكرات بورجوازي صغير بين نارين وأربعة جدران» الذي كان قد وصل إلى المكتبات منذ وقت قصير. وكان الكثيرون منا يذهبون إلى هناك، يعقدون الصداقات، يتناقشون ويختصمون، يختصمون ويتصالحون، يروون آخر ما قرأوه ويتعرضون له بالنقد بجسارة أو

بحذر. وقال حسن التمار إنه لا يحب الأماكن المكتظة، لا يحب ذلك المقهى ولا اللغة التي يتحدث بها رواده، لا يحب أيضا المرايا العتيقة على الجدران تذكرك بما قد أغفلت العناية به في مظهرك وما كنت قد نسيته من الغم المحفور على قسمات وجهك. تحدثنا في ذلك المساء عن كتاب «اللامنتمي» الذي كانت ترجمته العربية قد وصلت إلى المكتبات حديثا، وكان هشام عبدالله أكثرنا حماسة، ثم تبين بعد قليل أنه لم يقرأ من الكتاب سوى الصفحات الأولى، ولأنه لم يقرأ الجزء الأكبر من الكتاب اضطر إلى الاستماع دون أن يقول ما يبرر حماسته الأولى. وقرأ حسن التمار قصيدة كان قد كتبها قبل يومين، تردد في بداية الأمر لكنه رضخ أخيرا تحت إلحاح هشام، أخرج من جيب قميصه قصاصة ورق وقرأ:

في الطريق إلى القمة
في الطريق الوعرة إلى القمة
قابل رجل نفسه
«ماذا تفعل هنا؟»
«وأنت؟ ماذا تفعل أنت هنا؟»
خَجِلا:
«ضللت طريقي.»
أخذ أحدهما بيد الآخر
ومضيا في طريق العودة،
منحدرين.

وسأل هشام: هل ينبغي أن نفهم من هذا أن السعي إلى القمة أمر سيء يلام عليه المرء.

قال حسن: ليس دائما بالطبع، ولكن يمكن أن تفهم الأمر على هذا النحو. واحتدم النقاش.

وأوضح هشام: كل إنسان يسعى لبلوغ القمة. حين كنت في الرابعة عشرة، وقرأت في كتاب ما قول الإمام الشافعي «ومن طلب العلا سهر الليالي» دأبت على السهر في زاوية الغرفة وقرأت خلال ذلك عشرات الكتب التي لم أفهم كل ما فيها. كنت أجلس في زاوية الغرفة وأقرأ كل ما يقع في يدي. أحيانا كان جفناي ينطبقان على الرغم مني ثم يسقط رأسي على كتفي فأفيق، عندها أنهض، أمضي إلى الحمام وأغسل وجهي، ثم أعود لأتابع القراءة، لكن أمي تطل من الباب بملابس النوم، لا بد أن تكون قد أفاقت حين سمعتني أذهب إلى الحمام، فتطلب مني أن أطفئ المصباح وأذهب إلى سريري: سيضر السهر بصحتك. تستطيع متابعة القراءة في الصباح. ودافع حسن التمار عن موقفه: ذلك شيء مختلف. ولم يكترث أحد بأن هذا الدفاع غير مقنع فيطلب ايضاحا أو يسأل عن وجه الاختلاف. بينما همس قتيبة: أهو قول الإمام الشافعي، كنت أظنه للمعري.

وتحدثنا عن المعري وعن سيبويه الذي كررنا إسمه تلاميذ في المدرسة واستخدمناه في حججنا ضد خصومنا، لكن أيا منا لم يكن قد قرأه في ذلك الوقت ولم نقرأه بعد ذلك أيضا.

ودخل رجل وحيد إلى المقهى، تردد برهة وهو يروز الصالة بنظره ثم حزم أمره، تقدم بخطوات ثابتة وجلس إلى المنضدة المجاورة، طلب شايا شربه بتمهل، نهض وتناول واحدة من الصحف الموضوعة على منضدة جانبية، ثم جلس يقرأ، أو ربما تظاهر بالقراءة، لم يضع الصحيفة أمام وجهه كما في أفلام الجاسوسية لكنه كان يرفع وجهه بين حين وآخر وينظر في الفراغ أمامه نظرة توحي بأنه يحاول الإصغاء بتركيز، ثم يعود بنظره إلى نفس الموضع من الجريدة في كل مرة. وحين كان رياض يردد مقطعا من زهديات أبي العتاهية نهض الرجل وغادر المقهى. لكنه عاد بعد نصف ساعة، وقف لحظة في المدخل كما فعل في المرة الأولى وكان توفيق، النادل، يرفع الأقداح الفارغة عن مائدتنا في تلك اللحظة فطلبنا منه أن يسأل الرجل إن كان يبحث عن أحد ما. ولما كنا من الزبائن الدائميين للمقهى وكان توفيق يعتبرنا من أصدقائه، فكان إذا أتى بأقداح الشاي تلكأ ليصغي إلى حديثنا، وكان يتدخل أحيانا ويبدي رأيه في هذه المسألة أو تلك، لم يتردد في تلبية هذا الطلب. حمل الأقداح ومر وهو في طريقه إلى المطبخ بالرجل كما لو كان ذلك بمحض الصدفة وسأله إن كان يبحث عن أحد. أجابه: كنت متفقا مع صديق على اللقاء هنا، يبدو أنه لم يأت بعد. سأنتظره نصف ساعة أخرى فربما حضر. وعاد إلى المائدة القريبة من مائدتنا، جلس وطلب شايا. نظر رياض إليّ نظرة متواطئة وقال: سأروي لكم طرفة. ولم يخطر له شيء في الحال، فضحكنا. قال محتجا: لكني لم أقل شيئا بعد.

فتابعنا الضحك. ثم تطوع قتيبة لنجدته فروى لنا أن «رجلا جاء إلى جحا يطلب منه أن يقرضه بعض المال ويؤخر له موعد الدفع فقال جحا: لا مال عندي لأعطيك. أما بالنسبة للتأخير في الدفع فأمامك من الوقت ما تريد لأنك صديقي.» وضحكنا ثم تحدثنا عن أخبار الحمقى والمغفلين وعن بخلاء الجاحظ. ودَخنّا مزيدا من السيجاير. بعد حين تسلل الأصدقاء واحدا بعد الآخر وكنا أنا وقتيبة آخر من غادر المقهى. كان الرجل الغريب لا يزال في مكانه، ولا بد أنه غادر المقهى بعد وقت قصير من خروجنا.

حين بلغنا الرصيف قال قتيبة:

ثمة ما هو مريب في مظهر الرجل،أنا أعرفهم من نظراتهم، كلاب السلطة.

اعترضت: إنك تتجنى على الكلاب.

فدافع قتيبة عن رأيه: هل رأيت مرة راعيا يقود قطيعه في طريق ريفي، يرافقه كلبه؟ ما أن تحيد شاة عن الطريق حتى يسرع الكلب ويعيدها إلى القطيع، بينما يمضي الراعي مطمئنا خالي البال.

قلت مازحا: نحن الشياه فيما أحسب. وضحكنا.

في اليوم الثاني جاء حسن التمار في الخامسة وانضم إلى مائدتنا دون تحفظ. سأله هشام إن كان يحمل معه قصيدة جديدة، نفى أن يكون قد كتب شيئا جديدا وبدلا من ذلك حدثنا عن ابراهيم بن أدهم، ولم يكن أي منا قد سمع به، وألقى علينا العبارة التي تأثر بها بعمق، «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ الْجَنَّةَ لا تَزِنُ

عِنْدِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ إِذَا أَنْتَ آنَسْتَنِي بِذِكْرِكَ، وَرَزَقْتَنِي حُبَّكَ وَسَهَّلْتَ عَلَيَّ طَاعَتَكَ، فَأَعْطِ الْجَنَّةَ لِمَن شِئْتَ.»

ولمح دهشتنا من اهتمامه بكتب الفقه، فأوضح أن ما أعجبه في هذه العبارة أن ابراهيم بن أدهم خلاف الكثيرين، لا يبتغي مكافأة على ايمانه، وهو يرتفع بهذا عن رغبات الإنسان العادي، عن المؤمن المرتشي الذي ينتظر أن يكافأ بجنات تجري من تحتها الأنهار وبالولدان المخلدين. ثم قال شيئا عن هذا الذي سماه أول الصوفيين، عن تخليه عن ثروة ورثها، وانتقاله إلى دمشق لأنه يستطيع هناك العيش من عمله. انتقلت حماسته إلى رياض فظل ينتف شعرات لحيته، وهو ما كان يفعله حين يكون في حالة تأمل أو قلق. وعلق هشام: إن ما يدعو إلى الدهشة أن أحدا لم يتهمه يومذاك بالزندقة لأنه استهان بالجنة، وعقب قتيبة: هل تستطيع أن تتصور ما يمكن أن يحدث لك لو أنك رفضت مكافأة يقدمها لك الرئيس.

ثم روى لنا حسن أنه في الليلة الماضية، فيما كان يجلس إلى منضدة الكتابة سمع قرعا خفيفا على النافذة ثم صوتا يقول: ماذا تفعل حتى هذا الوقت! أطفئ المصباح واذهب للنوم. فجفل، وحين رفع نظره إلى النافذة رأى شبحا لم يتبين ملامحه يبتعد، شعر بالخوف فأطفأ المصباح، لكنه بقي ينتظر شيئا غامضا يمكن أن يحدث، بعد نصف ساعة أسدل الستائر وذهب إلى غرفة النوم وأغلق الباب بالمفتاح.

وانتبه هشام إلى أن المائدة القريبة بقيت خالية، وأن الغريب

لم يظهر ذلك اليوم. فالتفت إلى حسن: أيكون الرجل الذي كان يجلس هنا في الأسابيع الأخيرة؟ قال حسن: كلا. إنه أطول منه وأكثر امتلاء.

وتشعب الحديث واتخذ مجرى آخر حين حط عصفور عند أقدام هشام، «جئت لتشاركني زادي يا أبا محرز»، واقتطع من رغيفه قطعة صغيرة رماها للعصفور فالتقطها وطار مبتعدا. نظر رياض إلى هشام وسأل: أبو محرز؟ فأوضح هشام أن العرب أعطوا لكل حيوان كنية، فوجدنا أنفسنا نعدد كنى الحيوانات في العربية، تعاقب حسن وقتيبة على ذكر ما تذكراه منها، فوردان هو الحمار وأم عامر هي الضبع والغراب أبو القعقاع والبطة أم حفصة والجرادة أم عوف... رفع قتيبة إصبعه وقال مازحا وهو ينظر باتجاه الباب: وها هو أبو عوف قادم. كان الرجل الغريب قد دخل المقهى ووقف يلقي نظرة على الصالة ثم تقدم بخطوات بطيئة وجلس إلى المائدة التي كان قد جلس إليها في اليوم السابق. صار إذا جلس إلى المائدة القريبة من مائدتنا تحدثنا عن أبي عوف من غير تحفظ ووجدنا في ذلك تسلية.

حين حل الصيف انتقلنا إلى أحد مقاهي شارع أبي نؤاس، وصرنا نلتقي في المساء حين تكون حرارة الجو أقل وطأة، ولم يتخلف حسن التمار عن هذه اللقاءات إلا نادرا. كان قد أصبح في ذلك الوقت صديقي، ولأنني كنت في سنوات يفاعتي قد فضلت النوم حتى الضحى والتسكع بدلا من الجلوس في غرف

الدرس لم أستطع إكمال دراسة ما، وحصلت على وظيفة في المكتبة العامة، عمل أتاح لي قراءة كتب كثيرة حتى أنني تجرأت ذات يوم على التفكير في أن أكتب بنفسي كتابا. بدأت بكتابة أشعار موزونة، ثم تبينت أن ذلك ليس ما كنت أريد فعدلت عن الفكرة وبدلا من ذلك انكببت على قراءة ما كتبه الآخرون أملا في العثور على الكتاب الذي يفتح أمامي الأبواب التي ظلت مغلقة ويضيء لي الطريق إلى عالم أقل عتمة.

أصبح حسن التمار أحد الأشخاص المهمين في حلقتنا، كان قليل الكلام، لكنه حين يتحدث يقول دائما شيئا نافعا. ولم يكن يميل إلى الثرثرة التي لا طائل منها. ولأنه لم يكن يميل إلى المشاكسة والدخول في نزاعات صغيرة شعرنا جميعا بالرضا لوجوده بيننا وافتقدناه حين تخلف عن لقاءاتنا. لم نكن نتفق على تلك اللقاءات، لكن كل من وجد الوقت والرغبة لتبادل الحديث في أي شأن من شؤون العمل، الثقافة والحياة كان يجد أحدا ينتظره هناك. كنا نتحدث في موضوعات شتى، ونطرح آراءنا في هذا الشأن أو ذاك لنختبر قوتها وقدرتها على الإقناع، ولأن الحرب لم تكن قد بدأت بعد كان لدينا الوقت للاهتمام بشؤوننا الشخصية ورعاية صداقاتنا والتفكير في المسائل الوجودية التي أصبحت مع الحرب بطرا لا مكان له في حياتنا. كانت قد مرت سنوات على آخر الحروب، لكن تلك الحرب كانت قد وقعت في مكان بعيد ولم نعشها إلا في نشرات الأخبار والأناشيد الوطنية التي تبثها الإذاعة معظم ساعات النهار، وكنا قد دفعنا

ضريبة المجهود الحربي، استقطعت من رواتبنا الشحيحة بضع سنوات.

أحيانا كنت أصادفه بعد انتهاء العمل أمام محل لبيع الكتب القديمة فنعبر الشارع معا إلى الجهة الأخرى ونقفز داخل أول حافلة تتوقف في المحطة. نهبط منها في الباب الشرقي ونتجه من هناك إلى المقهى.

حين وصلنا المقهى ذات مساء وجدنا قتيبة وهشاما قد اتخذا مجلسيهما إلى نفس المائدة التي اعتدنا الجلوس إليها، فانضممنا إليهما، وكان قتيبة قد رسم على غلاف ورقة أمامه تخطيطا يشبه خريطة بلد ما وشرع يشرح تأثير الرياح الموسمية على شبه القارة الهندية.

كان قتيبة يعرف البلدان ويستطيع أن يصف لك شارعا أو محطة في أية مدينة في العالم رغم أنه لم يغادر البلاد إلا مرة واحدة. ولم يكن بوسعنا تأكيد ما يقوله أو دحضه لأن أيا منا لم يكن قد رأى تلك المدن أو شغل نفسه بالقراءة عنها. كان قد مول سفرته الوحيدة إلى بولونيا من سلفة الموظفين، وظل يتحدث عنها بعد عودته طيلة شهور، حتى بعد أن سدد القسط الأخير من السلفة. كان في الأسابيع الأولى يخرج أحيانا صورة من جيب سترته ويريها لأصدقائه، يظهر فيها أمام شجرة في حديقة وإلى جانبه شابة شقراء تضع رأسها على كتفه بدلال.

إدعى أنها صديقته، لكنه أسر لأصدقائه المقربين أن الفتاة ترافق مصورا يلتقط الصور للسواح في الحدائق العامة لقاء خمسة عشر زلوتي. لا يتوقف قتيبة عن الحديث عن مغامرات الآخرين، يتحدث عن عراقي قضى سنوات يدخر ما في وسعه، وحين جمع أخيرا ما يكفي لتذكرة سفر إلى اميركا، واستطاع أن يقترض من أصدقائه بعض المال كان أول ما فعله لدى وصوله إلى لاس فيجاس أن قامر بالمبلغ وربح مليونا. ولم يصدق أحد هذه الحكاية لذلك لم يُبدِ اي منا اهتماما بالرابح ولا سألنا ماذا فعل بالمال، لأننا كنا قد سمعنا الكثير من مثل هذه القصص. ونسيت القصة حين حضر النادل ووضع أمامنا بحركة مسرحية أقداح ماء فانسكب شيء منها على المائدة، سحب منديلا يتدلى نصفه من جيب صداره ومسح الماء المندلق. ووقف منتظرا طلباتنا.

بعد ساعة جاء مالك القسري ولم يكد يستقر على مقعده حتى نقل إلينا ما اعتبره خبرا مثيرا. قال إنه عثر على عشبة الخلود التي أعيت كلكامش.

أطلق قتيبة ضحكة مدوية وهو يتراجع في كرسيه إلى الوراء. فقال مالك: لست أمزح، لقد وجدتها حقا. كان القسري قد عمل بستانيا في مشتل أهلي يملكه قريب له قبل التحاقه بالجامعة، واكتسب من خلال هذا العمل معارف في عالم النبات لا تتوفر لأي منا، وكان مولعا بالحديث عن تجاربه في التطعيم والترقيد وتوطين النباتات الغريبة، لكنه لم يجد من يشاركه هذا الولع وكان

أحيانا لا يجد حتى من يرغب في الاستماع إلى هذه الأحاديث.

إبتسم هشام: وإذن ستسمح لنا بتناول شيء من هذه العشبة، أم أنك تريد أن تستأثر بها وحدك.

كرر مالك: عثرت على العشبة حقا. إشتريتها من مشتل في شارع الصناعة، إسمها العلمي غينوستيما بينتافيلوم. هنا أخرج ورقة من جيبه فردها وقرأ

Gynostemma pentaphyllum

ومد يده بالورقة أمامنا فرأينا صورة ورقة نبات داكنة الخضرة ذات خمسة فصوص ونبتة تلف مجساتها الخضراء الدقيقة حول قصبة رفيعة. قال مالك:

إنها لا تمنح الخلود بالطبع لكن سكان جنوب الصين يتناولون نقيعها مرة في اليوم. في منطقة غيوزهاو يبلغ معدل الأعمار ١٠٠ سنة.

في البدء لم يقل حسن شيئا، لكنه تناول الورقة من يد مالك. تطلع إليها ونظر إلى الصورة في وسط الصفحة: هذه إذن عشبة الخلود التي أعيت كلكامش.

قال مالك: إنها المعضلة التي شغلت البشرية منذ البدء. إخترع اليونانيون الآلهة وميزوها عن البشر الفانين، جوبيتر وبسويدون، أثينا وفينوس. لكن هؤلاء الآلهة لقوا في الآخر حتفهم، قتلهم العلم. وأعتقد كلكامش أنه كان على وشك النجاح في قهر الموت لولا تلك الأفعى اللعينة.

«تعكس ملحمة كلكامش حلم الإنسان في الخلود. مات

كلكامش وبقي هذا الحلم. واخترع القادرون منا أشكالا مختلفة من أجل الخلود، الأعمال العظيمة في الفن والأدب والعمارة، الانتصارات العسكرية وكل ما يمكن أن يذكر في الكتب.» قال قتيبة بلهجة المنتصر. فرد هشام: لكنه لم يكن يقصد هذا النوع من الخلود. كان يريد أن ينتصر على الموت. واعترض هشام: «ما من إنسان يريد الموت.»

وقال مالك: «إذا كان ثمة عشبة سحرية فلتكن عشبة الشباب. من يريد أن يعيش مئة سنة بآلام في الظهر، ارتفاع ضغط الدم، ونظر يغشيه الضباب؟ أنا لا أريد أن أتجاوز الخامسة والسبعين.»

«وأنا لا أريد أن أبلغ حتى الثلاثين.» قال حسن التمار بصوت يكاد يكون هامسا وهو ينظر إلى النادل الذي صار يبتعد في حديقة المقهى الواسعة ولم يعد قادرا على تمييزه في الضوء الشحيح إلا من خلال حزام صداره الأبيض المشدود على ظهره، ثم رآه يتوقف فجأة، يلتفت عائدا مستجيبا لنداء أحد الزبائن، يتوقف عند إحدى الموائد المحاذية للسياج مصغيا إلى الطلبات ثم يمضي باتجاه المطبخ.

لكن هشاما التقط الملاحظة واعتبرها مزحة فتابع ضاحكا: إذا كنت لا تريد أن تبلغ الثلاثين فاذهب إلى رضوان، إنه يستطيع أن يساعدك.

تناول حسن علبة سكائره فتبين أنه لم يبق فيها سوى لفافتين، مد يده بالعلبة إلى هشام وسأله إن كان يرغب في واحدة. «كلا

شكرا» قال هشام وأخرج ولاعته ليشعل السيكارة التي كان حسن قد وضعها بين شفتيه. وسأل حسن: «ومن يكون هذا الرضوان الذي يستطيع أن يساعدني؟»

وارتفع ضجيج المجموعة بالضحك لأن قتيبة روى أنه قصد أحد معارفه من الشعراء وحين فتح هذا الباب استقبلته غيمة من الدخان والبخور، وإذ أبدى استغرابه قال له مضيفه إنه كان بصدد خلق جو القصيدة. ولم نسمع ما قاله هشام.

* * *

شعر حسن التمار وهو يقطع الطريق إلى محطة الباص بالتخفف وكأنه قد أنجز واجبا مؤجلا ثقل عليه وقتا طويلا. تخفف مثل ذلك الذي يشعر به وهو يسلم صباح يوم الأربعاء المادة الصحفية التي أنفق في كتابتها ثلاثة أيام، يستطيع أن يستريح يوما أو يومين بعدها قبل أن يبدأ بالعمل من جديد. حين يسلم المادة يكون دوره فيها قد انتهى، سيقوم الآخرون ببقية العمل، التصميم والتنضيد والتصحيح.

حين بلغ تقاطع الطرق إنتبه إلى ان اسم الشارع قد تغير. لاحظ ذلك دون دهشة، فقد كان يعرف أن القائمين على الأمر لا يعترفون بالانجازات الفردية، لكنهم يستثنون فقط ضحايا الصراعات السياسية، وأن هؤلاء الضحايا لا يملكون حتى فضيلة التضحية فإنهم كانوا في وقت ما الطرف الأضعف في خصومة سياسية، وحين يتغير المزاج السياسي تبعا لتغير القائمين على

السلطة تتغير أيضا أسماء الشوارع والمدن. لقد شهد في سنوات حياته الثماني والعشرين سقوط تماثيل حكام أدركوا أنهم لن يتركوا بعد موتهم ما يذكرون به فنصبوا في حياتهم تماثيل لهم وأطلقوا أسماءهم على الشوارع والمدن، أسماء ستتغير بموتهم في انقلاب عسكري أو مؤامرة تأتي بأسماء جديدة. أما الشوارع الصغيرة والجانبية فلم تكن تغري أحدا من أصحاب السلطة فكانت تتخذ أسماء يطلقها عليها السكان، أسماء تشير إلى ضيقها أو سعتها، أو تنسب إلى مسجد أو مركز للشرطة أو دكان بقال.

الشارع الذي يسكن فيه مثل شوارع أخرى كثيرة لا اسم له، تقود خطاه فيها الرغبة وحدها في أن يكون في منزله، في مأمن من الآخرين.

لكن إمرأة بثياب سود وعصا غليظة ستقف في مدخل الشارع ذات يوم، تسد الطريق على المارة، تستوقف كل قادم تسأله: ما اسم هذا الشارع؟ فيقع في حيرة لأنه لم يعرف للشارع اسما من قبل، أو لأنه غريب فيشعر أنه فوت على نفسه معرفة الإسم لأنه لم ينظر إلى اللافتة التي تحمل اسم الشارع.

ستقول له المرأة أن اسمه شارع سُعدى. ستكرر السؤال، ويكرر المار جوابها قبل أن تسمح له بالمرور، وسيحمل الشارع بعد ذلك اسم المرأة، بائعة الخضار القوية، ولن يكترث أحد بتغيير اسمه فليس لسعدى خصوم سياسيون، ولكن لن ترفع عند مدخله أيضا إشارة تحمل هذا الإسم، وسيبقى الشارع للغريب الذي يقصده أول مرة واحدا من الشوارع الكثيرة التي لا اسم لها

حتى يسأل أحد المارة عن بيت أو منشأة فيذكر هذا له اسم الشارع وربما رافقه إلى حيث يريد.

حين وصل المقهى الصغير في نهاية الشارع رأى الرجل ذا الساق الواحدة يغادر المقهى، كان يصادفه بين حين وآخر قادما أو مغادرا يدق الأرض بساقه الخشبية. مر به وتجاوزه لكنه لم يسمع دقة الساق الخشبية على الأرض، ووجد التفسير لذلك على الفور، فقد كان الرجل يرتدي فردتي حذاء وهو أمر غير مألوف، وشغله السؤال عن الطريقة التي ثبت بها الرجل العمود الخشبي داخل الحذاء. فكر أنه لا بد أن يكون قد اشترى زوجا من الأحذية لأنه لن يجد من يبيعه فردة حذاء، وما دام قد اشترى زوج الأحذية فقد قرر استخدام الفردة اليسرى أيضا رغم أنه لا يملك قدما وإنما نهاية ساقه الخشبية. لكن قطر العمود أصغر كثيرا من فتحة الحذاء، وإذن كيف استطاع تثبيت نهاية العمود في فتحتها؟ أم هل يكون قد استبدل ساقه الخشبية بساق اصطناعية؟ ولكن أين يمكنه أن يحصل عليها؟ وقبل أن يجد جوابا مقنعا كان الرجل قد عبر الشارع وغاب عن نظره. فكر أن ذلك واحد من أشياء غريبة حدثت له هذا الأسبوع. ثمة ما هو عصي على الفهم أحيانا. لم يفهم أيضا كيف بقيت رسالة أحد مراسلي الجريدة المتطوعين في درج مكتبه شهرين كاملين دون أن ينتبه إليها. لا بد أن أحدا من زملائه قد وضعها هناك في غيابه. لكنه فتح الدرج أكثر من مرة ليضع فيه مسودات تقاريره أو يستل منه ورقة يكتب عليها ملاحظة ما ثم يعيدها إليه. حضر في ذلك الصباح متأخرا

وتذكر حين دخل المكتب المراسل الذي كان قد جاءه بتفاصيل عن موضوع كان ينوي الكتابة عنه، كان يتوقع قدومه بعد أسبوع أو اثنين ليأتيه بإضافة أو بشيء جديد. وها قد مرت أسابيع والرجل لم يأت. حين اتخذ مكانه وراء مكتبه وفتح الدرج وجد الرسالة. لاحظ أن ختم البريد عليها يشير إلى تأريخ سابق، وأنه قد مر عليها في الدرج خمسة أسابيع على الأقل، فكيف لم ينتبه إليها كل هذه الفترة، لكنه وجدها في الساعة التي تذكر فيها الرجل. تذكر أيضا أنه كان قبل أيام يسير بصحبة مالك القسري وبينما كانا مستغرقين في تبادل الآراء في نظرية الاحتمالات وكانا قد قرآ كتابا مترجما حولها صادرا عن دار التقدم السوفيتية صدمه أحد المارة حتى كاد يفقد توازنه، وحين رفع رأسه غاضبا رأى وجها يبتسم له، وتبين له من النظرة الثانية أن الرجل أعمى. وقبل أن يجد الكلمة الصحيحة سمع الرجل يقول له: إفتح عينيك لتتبين طريقك. كرر ما قاله الأعمى بلهجة هادئة وكأنه يردد حكمة أو نبوءة، فحلت الحيرة محل الغضب وشعر بشيء من القلق حتى أنه لم يعرف ما تحدث به مالك بقية الطريق.

* * *

لا يعرف حسن التمار متى بدأ ألمه الكوني. حين ولد، وكان خامس صبي لأبويه، لم يكن والده سعيدا تماما، فقد كان يريد إبنة تساعد أمها في شؤون المنزل وترعاه في شيخوخته، أما أمه فكانت فخورة بكونها أما لخمسة صبيان، ما لبثوا أن أصبحوا

سبعة، ولم يتهيأ لحسن الوقت الكافي ليحظى بإهتمام خاص كأصغر الأبناء. وفيما عدا أخيه الذي يكبره بسنتين لم تنشأ بينه وبين إخوته صلات وثيقة، كان يكبر وهو يرتدي السراويل التي ضاقت على أخوته الأكبر سنا ويلعب بخذروف تركه له أحد هؤلاء الإخوة أو يلوي أسلاكا عثر عليها في صندوق للحدائد في سرداب الدار ليصنع منها عربة يدفعها أمامه في أزقة الحي ويردد الأغنية التي حفظوها قبله. وحين اكتشف مكتبة المدينة كان الإخوة الأصغر سنا قد اكتشفوا الأزقة مكانا آمنا للعب والخرابة خلف الجامع ملعبا لكرة القدم، يلعبون مع رفاقهم في الزقاق حتى يشعروا بالجوع أو يرتفع نداء أمهم من شق الباب، يعودون متسخي الثياب، مبتهجين بالانتصار في معاركهم، أو بوجوه بقعتها الدموع المالحة لأنهم نالوا من الضربات أكثر مما استطاعوا الرد بمثله وذهب بعض ما معهم من كريات زجاجية أو خذاريف غنيمة للعدو. أما الإخوة الأكبر سنا فكانوا يغادرون المنزل مصحوبين بدعوات أمهم، دون أن يعلنوا عن وجهتهم، لا يتحدثون إلا قليلا، أمهم وحدها توجه إليهم الأسئلة وهي تضع الأطباق على مائدة عشائهم فلا تتلقى سوى أجوبة مقتضبة، صارت الحياة في البيت تجري في غيابه، لأنه مشغول بسيف بن ذي يزن وعنترة العبسي، وقصص ألف ليلة وليلة.

* * *

يبدو مقهى نجمة الصباح قطعة من مساء محتقن بكل ضجيج

النهار، الأحاديث المؤجلة، قرقعة أقداح الشاي ونداءات الزبائن المتذمرة من طول الانتظار، يجلسون مجموعات منشغلة بنفسها، دخان السجاير يزداد كثافة مع ازدياد عدد الزبائن وامتداد ساعات إقامتهم فيه. إنه ليس مكانا للاسترخاء أو التأمل أو حتى قراءة جريدة في هدوء. في مواجهة الباب منضدة مرتفعة يقف خلفها صاحب المقهى، خلفه باب تؤدي إلى المطبخ أو المخزن. إلى اليمين منه صالة تمتد عميقة خلف الواجهة الزجاجية فيبقى نصفها الأبعد سيء الإضاءة، أو نصف مظلم، مكانا يصلح لما لا يمكن التحدث عنه في ضوء النهار.

هنا في الزاوية المظلمة من المقهى جلس حسن التمار منتظرا، وكان في هذه اللحظة مفرغا من الألم، من الحزن، من الذكريات ومن الأفكار بشأن العمل والمستقبل. لذلك لم يعرف إن كان الرجل الذي حياه وجلس إلى مائدته قد استأذن أولا أو قال شيئا قبل التحية. ولا يتذكر إن كان قد رد التحية أم أنه أومأ برأسه وحسب. وعلى أية حال فقد أيقظه وجود الرجل قريبا منه قربا أشعره بالضيق. تحدث الرجل عن ارتفاع الأسعار واختفاء البضائع من الأسواق، عن مهنته كتاجر للسيارات المستعملة، عن ضعف في عينيه اليسرى وتخليه عن مهنته السابقة في إصلاح أعطاب المحركات بسبب هذا الضعف. كان الرجل يتكلم طول الوقت وحين يتريث لحظة وينظر في عيني حسن يهز هذا رأسه بالموافقة. ثم باغته على غير توقع بالسؤال عن مهنته. قال

حسن: معلم في المدرسة القريبة. كان قد رأى وهو قادم إلى المقهى جمهرة من الأطفال يحملون الحقائب المدرسية، يتسابقون صاخبين تارة ويتلكأون تارة أخرى حتى إذا بلغوا تقاطع الطرق تفرقوا يمينا وشمالا، وكان يجد أحيانا تسلية بانتحال شخصية ما. لا يشعر في ذلك أنه يقترف كذبة، لأنه يعيب على الآخرين فضولهم، وتضليلهم هو الجزاء العادل لهذا الفضول. وكان أحيانا يمضي في انتحاله حتى حين يدرك أن الشخص الآخر لم يصدقه. مرة تعرف عليه رجل جلس قبالته في الحافلة فسأله بمودة: هل تسمح لي بسؤال، لقد قرأت مقالك في الجريدة أمس. وليمنع الرجل من الاستطراد قاطعه: لا بد أنك توهمت.

«لكنك تشبه الصورة في الجريدة.»

فأجاب: كثيرون يقولون لي هذا. أمس سألني موظف في دائرة البريد إن كنت حسن التمار، وقال لي الشيء ذاته. كلا، كلا، إسمي صادق البغدادي إذا كان هذا يهمك. وقد أعطى مرة عنوانا مختلقا لرجل تعرف عليه في إحدى رحلات عمله حين قال له إنه يريد أن يزوره حين يكون في بغداد. وفي مرة أخرى استقبله مدير جناح معرض للكتب في مدينة أخرى ببشاشة لأنه كان قد تعرف على وجهه، طلب منه أن يكتب كلمة في سجل الزوار، ففعل مكرها ووضع أول اسم خطر له تحت كلمته، سأله المدير عما يفعله في هذه المدينة فادعى أنه يدرس هندسة الحدائق، ودعاه الرجل إلى اختيار ما يشاء من الكتب هدية له، فاختار الكتب التي يحتاجها وكتابا إضافيا عن هندسة الحدائق

ليعزز به كذبته، وحين نظر الرجل في سجل الزوار وقرأ الاسم وقع في حيرة، فتركه في حيرته وغادر الجناح قبل أن يُعَرِّض نفسه لمزيد من الأسئلة. ولم يجد في كل هذا ما يشعره بالخطيئة ما دام يعتقد أن الجميع إنما هم ممثلون وأن القليل مما نقوله أو نفعله يتطابق مع رغباتنا العميقة، مع قناعاتنا، مع نوايانا.

قال الرجل بحماسة: لي ابن في هذه المدرسة. ولم يلاحظ عدم اكتراث حسن التمار بقصته فتابع، إنه مجتهد بشكل عام، لكنه ضعيف في مادة الرياضيات. هل تستطيع أن تتحدث مع معلمه ليوليه بعض الاهتمام، ربما كان يحتاج إلى كلمة مشجعة فقط. ولم يكن أمام التمار ليخرج من المأزق الذي وضع نفسه فيه إلا أن يمضي في كذبته فسأل: هناك ثلاثة معلمين للرياضيات في المدرسة، أيهم معلم ابنك؟ قال الرجل: «إسمه خلدون، رجل قصير ممتليء.»

«آه، هذا، إنه شخص قصير النظر، اختصمت معه قبل يومين لأنني قلت أن مادة اللغة العربية من أهم المواد، ولأنه يدرس الرياضيات شعر أن في هذا تقليلا من شأنه.»

قال الرجل: «إذا كنت لا تريد أن تتحدث معه فربما تحدثت مع معلم آخر ليتحدث معه.» أخرج علبة السيكائر التي توشك أن تفرغ من جيبه واقتطع منها قطعة صغيرة، سأل التمار إن كان معه قلم، ثم كتب ثلاث كلمات على الورقة وناولها للتمار: هذا هو اسم إبني. أدخل التمار الورقة في جيبه. إلتفت الرجل صوب الواجهة الزجاجية للمقهى، ألقى عبرها نظرة إلى الخارج وقال:

الربيع يقترب. أصبح الطقس في الخارج دافئا. إنتابت حسن رعدة خفيفة، إنه يشعر بالبرد يتغلغل حتى العظام، الآن وحين يكون في المنزل أو يذهب لحضور ندوة أو اجتماع، برد لا ينفع معه جمر مدفأة ولا شمس الظهيرة الدافئة.

حين انتهى الرجل من شرب شايه، لم ينتظر قدوم النادل، إعتذر من حسن ونهض متوجها إلى منضدة الخدمة، دفع الحساب وغادر المقهى.

في هذه الزاوية أيضا رأى حسن التمار رضوان. جلس في مواجهته. راقب نصف وجهه المضاء بالنور الشحيح المنسل من زجاج الواجهة، أما النصف الثاني من جهة الجدار فقد كان معتما يصعب تمييز ملامحه. كانت صالة المقهى مكتظة ولم يكن ثمة من يلتفت إلى الآخرين خارج الحلقة التي يجلس ضمنها. تسمع أحيانا جملة مثل. أنت على حق، ولكن . . . ثم يضيع باقي الجملة لأن المتكلم قوطع قبل أن يتمها أو لأن ثلاثة أشخاص تكلموا معا فاختلطت الأصوات. رآه كما توقعه، رجلا في الثلاثين، أقل أو أكثر من ذلك بقليل، سمرته الكدرة تعكس تاريخا من البؤس، وجه يشبه ملايين الوجوه التي لا تجد طريقا إلى الذاكرة، ليس لها ما يميزها. فكر أنه قد لا يتعرف عليه إن رآه ثانية، فجهد أن يثبت صورته في ذاكرته. العلاقة التي ستنشأ بينهما منذ هذه اللحظة جعلته يدقق النظر في وجهه، يحفظ ملامحه كما يحفظ تلميذ درسه. لاحظ أنه يغض بصره وهو

يتحدث، وحين يرفعه وينظر في وجه محدثه تكون له نظرة ثابتة، متحدية، هجومية، نظرة صقر يهم بالانقضاض على فريسته. نظرة تعطل أية محاولة للشك أو الاعتراض. وكانت هذه النظرة لا تتفق مع القصة التي يرويها بالتفصيل والتي لم يكن يهم حسن التمار الاستماع إليها. ربما أراد بها أن ينفي عن نفسه صفة الشر، قصة قابلة للتصديق، لكنها لا تعني حسنا على الإطلاق. ما يهمه هو أن يؤدي له خدمة سيدفع له أجرها مقدما.

قال رضوان إنه حين بلغ الثامنة عشرة عمل سائقا لسيارة الاجرة نفسها التي عمل فيها جابيا. أنهكت آلام المفاصل مالكها فتقاعد عن العمل، وسلمه مفاتيحها ليأتيه في المساء بما كسب بعد أن يستقطع أجره. في الحادية والعشرين بدأ يحلم بحافلة يمتلكها فلا يضطر إلى العمل المأجور، لكنه لم يكن يملك مالا. وفي الخامسة والعشرين كف عن الحلم. ووجد طريقة جديدة للكسب السريع.

بدأ الأمر على غير توقع حين التقى أحد معارفه القدامى في المقهى. بدا هذا متكدرا، لم يكن يصعب عليه أن يكتشف ضيق صدره من صمته الطويل والإجابات المقتضبة على أسئلته. وحين سأله عما يسبب له الضيق إنفجر هذا غاضبا: لو كنت أملك سلاحا لقتلته. هذا الدعي الفاسق، يترصد الفتاة حينما تخرج في الصباح، يطاردها أينما ذهبت. سكت فجأة وتجمدت نظرته على وجه رضوان. ثم قال: أنت تستطيع مساعدتي. لم يفهم رضوان ما أراده صديقه منه، لكن هذا نظر إليه نظرة أعادت إلى ذاكرته

قصة مكدرة حدثت له قبل سنوات. كان هذا الرجل بصحبته في الطريق إلى البيت في ساعة المساء. قاد السيارة في الشارع المظلم متجها جنوبا، وفجأة قفز أمامه شخص من حيث لا يدري. حاول الانحراف إلى اليسار لكنه لم يستطع أن يمنع صدمة خفيفة أعقبها صوت ارتطام، قال له صديقه، تابع السير، لا تتوقف. وهكذا فعل. في صباح اليوم التالي عاد إلى المكان ورأى بقعة دم صغيرة على اسفلت الشارع. ظل الجهل بمصير ضحيته يعذبه أسابيع قبل أن ينجح في إزاحة الحادث إلى المنطقة الأكثر عتمة في ذاكرته. تذكره الآن من جديد لكنه لم يفهم ما أراده صديقه، غير أن هذا أوضح دون مواربة: حوادث الدهس تتكرر كل يوم. حين لا يكون ثمة شهود، يمر كل شيء دون تبعات.

«إنها محض صدفة. لو لم ألتقه في ذلك المساء، لمضت حياتي في طريق آخر.» قال وكأنه يلتمس بذلك شهادة البراءة.

تحول خلال سنوات قليلة إلى سائق سيارة أجرة صغيرة يمتلكها، أصبح سيد نفسه، يستطيع أن يتأخر عن العمل، يعطي لنفسه إجازة قصيرة أو طويلة أو يغير منطقة عمله، كل شيء مرهون بوضعه المالي، يعمل ساعات إضافية حين لا يكون قد كسب ما يكفي ويقضي بعض الوقت في المقهى حين يكون قد كسب ما يكفي. هذا الوضع الجديد أتاح له أيضا حرية الحركة في عمله الإضافي. أصبح الكل في مقهى «نجمة الصباح» يعرفه باسم رضوان. يتذكر أنه سمع الاسم أول مرة حين ناداه جاره

الذي عمل جابيا لديه: تعال يا رضوان، قال ذلك لأنه نسي اسمه في تلك اللحظة، أو ربما أراد أن يمازحه فقط مشيرا إلى قناعته وامتنانه وهو يتقاضى أجره في آخر النهار. بعد ذلك بسنوات وحين كان يجلس في المقهى للمرة الأولى وسئل عن اسمه أجاب دون تفكير «رضوان»، خامره الشعور في تلك اللحظة بأن ثمة ما يجب أن يخفيه، وأنه يصبح في اللحظة التي يدخل فيها المقهى شخصا آخر غير قاسم مطر. ففي المقهى صار يلتقي أهل الضغينة، يعقد الصفقات السرية، ويقدم تقاريره عن سير العمل. في البدء أحس وهو ينطق بهذا الاسم أنه يبقى متنكرا، مستترا عن العيون، ثم شعر مع الأيام أن رضوان شخص آخر يرتبط وجوده الهش بالفعل. حين يكف عن الحركة يكف عن الوجود، وأنه يستطيع أن يمحوه من الوجود متى أراد، فتمحى أيضا كل أفعاله. لا يحتاج إلا إلى الانقطاع عن هذا المقهى واختيار مقهى آخر يستعيد فيهه اسمه وشخصه.

* * *

هابطا الدرجات الثلاث التي تقوده إلى الشارع شعر رضوان بدفء المصافحة في يده، فتحها ونظر إلى كفه كما لو كان هذا الدفء شيئا مرئيا، ثم فرك راحة يده بإبهامه وكأنه يحاول أن يزيل شيئا علق بها. لكنها ظلت دافئة. فعمد إلى مسحها بجانب سرواله على امتداد فخذه، راقبه حسن التمار من مكانه عبر زجاج واجهة المقهى. كانت يده لا تزال دافئة أيضا. حين حضر رضوان

إلى المقهى واتخذ مكانه في مواجهته صمت طويلا، بدا مرتابا. كان لا يعرفه، وكان التمار قد عرف عنه من صديق سمع عنه من صديق سمع عنه بدوره من صديق ثالث سمع به من رابع، توالت السلسة انحدارا إلى الهاوية التي تتسع لأعداد غفيرة من الناس حتى أن المرء لينظر أمامه ولا يدرك أين هو لأنه لا يرى سوى أشباه له يتحركون في كل الاتجاهات ويوسعون لمرور أي قادم جديد دون شعور بالضيق.

استعاد كلمات حسن التمار الأخيرة: «إلى اللقاء» وجوابه عليها وهو يسحب يده المصافحة: «لكننا لن نلتقي ثانية.» ورأى وجه التمار يجلس في مواجهته في الزاوية المظلمة من المقهى بوضوح أكبر مما كان يُحِب.

فكر، ربما كان التمار يسخر منه، أو ربما كان ما قاله له مجرد مزحة. ربما قاله أيضا بحكم العادة، دون أن يفكر فيما قد يعنيه. لأنه لن يلتقيه مرة أخرى، لن يرى وجهه ثانية. لقد خانته اللغة هو الآخر حين أكد لمحدثه وهو يضع المبلغ في محفظته، سأقوم بالعمل بصورة ترضيك. لاحظ الابتسامة المرحة على وجه حسن التمار وهو يجيبه، لن تستطيع أن ترضيني، لن يكون ذلك ممكنا. أدرك الخطأ لكنه لم يستطع أن يفهم ما معنى الألم الكوني الذي تحدث عنه التمار. يعرف ألوانا كثيرة من الألم، ألم الجرح، ألم المرض، ألم الفقدان، وألم عدم امتلاك المرء ما يتحرق شوقا إلى امتلاكه وما يمكن أن يفقده. أما الألم الكوني فهو لا يعرفه، لا يعرف من أين يأتي، ولماذا هو شديد الوطأة،

غير أنه عرف الآن إلى أين يؤدي بالمرء. لكن مهلا. ربما كان الأمر مجرد حذلقة أراد بها التمار عدم البوح بأسبابه. فهو قد تحدث كما يتحدث بعض هؤلاء الذين يظهرون بين حين وآخر على شاشة التلفزيون، يقولون أشياء لا يفهمها أحد. لم يكن مرغما على الاستماع إليهم. كان ينتقل إلى قناة أخرى يبحث عن فلم مصري يجد فيه تسلية. وعلى أية حال فلا يمكن لمثله أن يفهم. حين كان في العاشرة مات أبوه وكان عليه أن يترك المدرسة. مسلحا بقدرة لا بأس بها على القراءة والكتابة والحساب قبل كل شيء، عمل جابيا في حافلة صغيرة لنقل الركاب يملكها جار للعائلة. ذهبت إليه أمه وروت له ما يعرفه سلفا عن مأزق العائلة دون معيل فقال لها: ليبدأ العمل منذ الغد. ظل منذ ذلك اليوم وحتى أتم الثامنة عشرة يقف بباب الحافلة المفتوح، يهتف بأعلى صوته: شواكة... علاوي الحلة، وحين يكتمل عدد الركاب، يحشر نفسه في الفسحة الضيقة أمام الصف الأول من المقاعد، يغلق الباب ويبدأ بجمع الأجرة. لم يفهم أيضا يوم كان في الحادية عشرة وجاءت إلى المرآب إمرأة شابة يرافقها مصور، سألته عن اسمه، عن عمره وكم يكسب في اليوم وهل يفضل أن يذهب إلى المدرسة، فرح حين ظهرت صورته الملونة في المجلة الاسبوعية والتف حوله السواق والجباة في المرآب، ربتوا على ظهره وأهداه أحدهم نسخة من المجلة. لم يفهم لماذا التقطت له الصور. شعر فقط بالزهو وهو يرى صورته مطبوعة على الورق. في الرابعة عشرة أدرك أن مكان من هم في

مثل سنه المدرسة، لكن الوقت كان قد فات ولم يكن يستطيع تغيير شيء.

هذه هي المرة الأولى التي يعرف فيها ضحيته. كان ثمة شخص ثالث في كل مرة، شخص يعهد إليه بمهمة يحاول تنفيذها بأقل الطرق مغامرة. يحصل من الشخص الذي عهد إليه بالمهمة على صورة الضحية، على مكان عملها أو سكناها والأماكن التي تتردد عليها. كان يحاول التعرف عليها من بعيد، ثم رصد حركتها، ليختار الفرصة المناسبة للتنفيذ. لم يسأل أبدا عن الأسباب، لأن مثل هذا السؤال سيضعه في مأزق. سيكون عليه أن يشكل رأيا، أن يصدر حكما، يجعله متورطا في مسألة لا شأن له بها، وهو أمر قد يعيق عمله. خلال سنوات عمله تغيرت وسائل التنفيذ وامتلك أدوات جديدة. وكان حريصا على أن يطلق الرصاص على ضحيته من الخلف، لأنه لا يطيق نظرة الرعب في عيني الضحية لحظة توجيه فوهة المسدس نحوها. لأنه لا يريد أن يرى الوجوه على الإطلاق، لأنه سيتذكرها في يوم ما، أو ربما لاحقته حتى آخر أيامه. ضحية دون وجه أسهل على النسيان. ينفذ المهمة، يتقاضى أجره، وحين يمر أسبوع أو اثنان يكون قد نسي كل شيء. الأمر مختلف هذه المرة. اتفاق بين القاتل المأجور والضحية التي تعرف عليها. ضبط نفسه متلبسا بالتفكير في حسن التمار، ما الذي يدفع شخص لا يزال في مقتبل العمر، لا يعاني من ضائقة مالية، ليس له زوجة تحول حياته إلى جحيم

ولا أطفال ينفطر قلبه حين لا يستطيع أن يلبي لهم رغبة، رجل يمارس مهنة أقل ما يمكن أن يقال عنها إنها محترمة، لا يعاني من العوز إلى الانتحار؟ هز رأسه وردد بصوت مسموع «لله في خلقه شؤون».

حين وصل المنطقة الأكثر ازدحاما في ساحة الطيران تلمس رزمة الأوراق المالية في جيب قميصه، وتابع طريقه منحدرا في شارع النضال حتى بلغ البناية التي انتقل للسكن في واحدة من شققها قبل سنتين، واحدة من العمارات السكنية القليلة التي أقيمت في وقت مبكر حيث لم يكن السكن في الشقق في تلك الأيام مستحبا. شعر بالارتياح لأنه لم يصادف أحدا في مدخل البناية ولا في المصعد. وحين كان في شقته. أخرج رزمة الأوراق المالية من جيب قميصه، عدها ووضعها في صندوق معدني دسه تحت كدس من الأوراق في أحد أدراج خزانة الملابس.

ستكون هذه محادثتهما الأخيرة، لأنه تعهد أن يجري الأمر بشكل مباغت، يقوم بنفسه بالتنفيذ ولا يجوز له أن يعهد به إلى طرف ثالث. يتم التنفيذ خلال مدة لا تزيد على أربعة أشهر من عقد هذا الاتفاق.

أخرج من جيبه أيضا نتف ورقة كان قد مزقها في الطريق إلى قطع صغيرة فلم تعد قراءة ما كتب فيها ممكنة، الورقة التي يشرح حسن التمار فيها أن الأمر هنا لا يتعلق بجريمة وإنما بانتحار لم

يستطع أن ينجزه بنفسه. قال التمار وهو يناوله الورقة، في هذا ما يثبت براءتك. لكن رضوان شعر بالفزع وهو يقرأ الملاحظة على الورقة. إنه يقوم بالعمل عادة دون أن يترك أثرا، وسيكون الحال هكذا في هذه المرة أيضا. «هذه وثيقة إدانتي» قال معترضا. أعطني النسخة الثانية. أخذ الورقتين ووضعهما في جيبه. أدرك التمار تحفظ رضوان، ففكر أن يكتب رسالة يتركها في منزله توضح الأمر دون أن تكشف عن هوية الفاعل. سيترك الورقة في غرفة نومه أو على منضدة الكتابة. وهو تحفظ لم يجد رضوان ما يبرره. لقد كان دائما خارج دائرة الشبهة. بحث المرء عن القتلة بين صفوف الأحزاب المعادية. وكان التحقيق يبدأ دائما بخصوم القتيل السياسيين، أحيانا كان لهؤلاء الخصوم أصدقاء في الشرطة ومؤسسات أمن الدولة فينتهي التحقيق بتسجيل الحادث ضد مجهول، تختفي الأدلة وتغلق القضية. على هذا النحو بقي قاتل صاحب محل لبيع الخضار مجهولا رغم أنه أطلق الرصاص على ضحيته في الساعة الحادية عشرة من الصباح، في شارع عام، ولم يتهيأ لزوجة الخباز الشابة الذي انفجرت قنبلة في سيارته حين أراد تشغيل محركها ليمضي في الصباح إلى عمله الشعور بالعزاء بالعثور على الفاعل.

سيشرع الآن بوضع خطة لرصد حركة حسن التمار، فهو لم يقدم له أي مساعدة بهذا الصدد، ولأن تنفيذ المهمة يجب أن يكون مباغتا. سيفاجئه في مكان ما من حيث لا يتوقع. فكر أن

لديه متسعا من الوقت ليقوم بتحرياته ويضع خططه، لكنه لن ينتظر طويلا، ربما استطاع إنجاز العمل في أقل من شهرين أو ثلاثة.

لا يدري لماذا تذكر الآن مشهدا رآه وهو صبي في طريق عودته من المدرسة، نساء نادبات وعددا كبيرا من الناس تجمعوا في الزقاق. كانوا جميعا يتحدثون عن موت صبي تحت عجلات سيارة مسرعة. كان الموت شيئا مريعا، شيئا يفقد الأمهات صوابهن. وقف يومها مع أصدقائه خارج الحشد المتجمع، وحين دخل الدار من دخل وانصرف الباقون، تابع هو وأصدقاؤه طريقهم إلى البيت. لا يدري لماذا تذكر ذلك الآن. انقبض صدره، فبحث عن ما يصرفه عن استعادة تلك الصور التي تتخذ الآن أبعادا جديدة. ضغط على مفتاح تشغيل التلفزيون، كان المغني يصدح بأغنية حزينة بدت له كالنواح فضاعفت شعوره بالضيق.

* * *

شعر حسن التمار وهو يودع رضوان ويغادر المقهى بالانشراح مثل من عقد صفقة مربحة، أو كمن أدى دينا كان عليه أن ينتظر طويلا حتى يتمكن من سداده. وقد أنساه هذا الانشراح الألم الكوني الذي ظل يعاني منه سنوات، والذي استطاع تشخيصه فقط حين قرأ في كتاب أن «غوركي» حين استرد وعيه وكانوا قد عثروا عليه عند ضفة النهر بعد محاولة انتحار، قال إنه يشكو من الألم الكوني. فكر يومذاك: هوذا، هذا ما أكابد منه أنا

أيضا. في تلك اللحظة أصبح لألمه اسم: الألم الكوني. الشعور بأن العالم لا يطاق، ولا سبيل إلى إصلاحه. كل ما يستطيع المرء أن يفعله أن يدير له ظهره. أن يمضي في الطريق الذي لا رجعة فيه. صار منذ تلك اللحظة ينظر إلى ما حوله كما ينظر إلى مستعمرة نمل، هل قرأ هذا في مكان ما، لا يتذكر. صبيا رأى ممالك النمل يفاجئها الماء المندلق من إناء أو المتدفق من صنبور للمياه فتحاول نقل ما استطاعت من بيوضها وتبحث عن مكان آخر. أدهشه دأبها في نقل ما استطاعت. إنها لا تسرع للهرب فتنجو بجلدها وحسب، بل تنقل بيوضها إلى مكان آخر آمن. يموت بعضها غرقا، يموت بعض آخر في الطريق، لكن يبقى دائما عدد كاف من الناجين.

كان يرى النملة تتحرك، في الاتجاه الخطأ أحيانا، فيما يشبه المتاهة، وقد تجد الطريق إلى هدفها أخيرا، فتضع حبة القمح التي أنهكتها في المستودع لتعيد الكرة من جديد. النمل الذي يتضافر في صف طويل يجد الطريق مباشرة. اعتقدَ أنه يستطيع الآن رؤية النمل البشري ورصد حركته في متاهته، الأصدقاء والأعداء، المهتدين والضالين، الأسوياء والمأفونين وحدد مكانه خارج القطيع. أنه بلغ النقطة التي جعلته يعتقد اعتقادا راسخا أنه يعيش في عالم خرب لا مكان له فيه.

متى بدأ المرض يتسلل إلى روحه؟ لا بد أن ذلك حدث منذ وقت طويل، منذ كانت أمه ترميه بنظرتها الفاحصة حين يعود إلى البيت. تقول دون أن تنتظر جوابا: سأسخن لك العشاء. حين

يعود إلى المنزل متأخرا وتكون هي قد نامت يسمعها في الصباح تلوم نفسها لأنه نام دون عشاء. تتحدث عنه وكأنها تتحدث عن طفل، ولا تستطيع أن تفهم أنه قد يعزف عن الأكل بسبب فقدان الشهية، بسبب انشغاله بمشكلة ما، أو بسبب التعب من تجوال النهار. تتحدث عن قلقها بصوت مسموع يسمعه وهو في غرفته في الطابق الثاني من المنزل، وحين لا يكون من تتحدث معه، تفكر وهي تتابع عملها في المطبخ بصوت يسمعه إن لم يكن قد وضع السمفونية الرابعة لبرامز أو كونسيرت الكمان لسيبيليوس على الغرامافون فيفعلان فعل قرص مُسكّن. ربما قبل ذلك، حين كان يعود إلى البيت متأخرا، فيستقبله أبوه بالعبارة نفسها دائما «فكر في مستقبلك!» كانت تلك العبارة تهوي على مسمعه مثل مطرقة. كان يسمعها من أمه كلما خرج للعب الكرة مع أصحابه، ويسمعها من أبيه كلما جلس أمام التلفزيون، قبل أن يروي له أنه كان مضطرا في طفولته أن يتناوب استعمال قلم الحبر مع أخيه الذي يكبره سنا، وأن الحبر كان يباع على شكل أقراص يشترونها من البقال القريب، يذيبونها في الماء أولا فتتلطخ أصابعهم قبل أن يكونوا قد بدأوا بالكتابة، ويؤكد له أن الحياة لم تكن سهلة كما هي اليوم، كما لو كان عليه أن يشعر بالذنب لأن الحبر لم يتوفر في الماضي في محابر ولأن جده لم يستطع أن يوفر لكل واحد من أولاده قلم حبر خاص به. أو لأن قلم الحبر الرخيص كان يلوث الأصابع، ولا ينسى أن يذكره في كل مرة «لا تضيع وقتك فيما لا نفع فيه. فكر في مستقبلك.» ها هو قد بلغ هذا

المستقبل، المستقبل الذي تخلى من أجله عن التسكع في الحدائق مع رفاقه، عن قضاء وقت أطول في لعب كرة القدم بعد الظهر وعن قراءة مزيد من كتب المغامرات وقصص الحب.

تعلم فك طلاسم الحروف وقرأ قصص كليلة ودمنة في الكتاب المدرسي وأخطأ في جدول الضرب. لم يكن أبدا الإبن الذي سيمسك دفتر الحسابات في محل أبيه. إنه قد بلغ الآن هذا المستقبل بعد جري عشرين سنة، يجلس إلى منضدة الكتابة كل صباح لا يخطر له شيء نافع، يقلب الصحف لعله يجد فكرة، موضوعا يبدأ منه ليدبج مقالته التي لن يستطيع أن يقول فيها كل ما يريد، وهو يدرك أنها لن تجعل العالم أقل بؤسا.

كانت الشمس قد أصبحت عمودية، وكان ظله قد تقلص إلى بقعة سوداء حول قدميه. لو وصل النقطة التي تسقط فيها الشمس على رأسه عمودية تماما سيختفي الظل أيضا.

وجد متعة في مراقبة الظلال التي تلقي بها الأشياء من حوله، حاول أن يتعرف على الأشياء من ظلالها، ثم تذكر قصة الرجل الذي باع ظله للشيطان فتحولت حياته من غير ظل إلى جحيم، فعاد يبحث عن الشيطان ليستعيد ظله ويعيد إليه نقوده. ولكن لأي شيء يحتاج المرء إلى ظل، غير أن كائنا من غير ظل هو الاستثناء حيث لا يسمح باستثناء، الخروج عن القاعدة التي لا يجوز الخروج عنها، لا يمكن لإنسان أن يعيش بين الناس بلا ظل، لكنه لن يكون بحاجة إلى ظله خارج القطيع البشري.

وإذن سينتهي كل شيء عما قريب، لن يكون ثمة ذهاب إلى المكتب وعودة منه، حيرة في اختيار الموضوع، وعمل ما لا يحبه، لن يكون هناك غضب، حزن، يأس، وإنما السكون المطلق. ماذا يهمه العالم بعد ذلك. لم تخطر له أبدا فكرة الانتقام التي يضمرها طفل يريد أن ينتقم بموته من أبويه لأنه لم يحصل منهما على ما يريد، ولأنه تلقى تربية جيدة عن البر بالوالدين لن يستطيع أن يتمنى موتهما. لقد تجاوز هذه السن. سيكون موته مسألة شخصية بحتة لا شأن لأحد بها، لأنه وحده اتخذ القرار في عدم تأجيل هذا الموت الذي سيدركه في وقت ما، لن ينتظر حتى تنهك السنوات جسده فيصبح مثل شجرة ميتة لا تصلح إلا للقطع. ويكون قد عانى من جروح وخيبات، إهانات وإخفاقات لا حصر لها.

تذكر بمرارة الخيبات الكثيرة خلال كل الأعوام التي عاشها، الضربات التي تلقاها من المعلمة لأنه أراد أن يستعيد قلما اغتصبه تلميذ منه، فتشابكا بالأيدي، رأت المعلمة ذلك ولم تسأل عن السبب أو تتحرى عن المذنب، فاعتبرت الأمر شغبا وتلقى كلا منهما عددا متساويا من الضربات، مصروف الجيب الذي منعه عنه أبوه لأنه خرج مع أصدقائه ولم يمكث في المنزل لمساعدته في إصلاح سياج الحديقة، والعقوبة التي تحملها مع عدد من التلاميذ ببسالة لأن أحدهم قد كتب كلمات بذيئة على جدران دورة المياه. كانوا يعرفون الفاعل لكن لم يشأ أي منهم أن يشي به، والتقييم المجحف لعمله في أحد الامتحانات لأنه أجاب على

السؤال بمادة قرأها في كتاب للمطالعة ولم تكن قد وردت في الكتاب المدرسي. والآن خيبته الكبرى من عمل ظن في البدء أنه ما يريد، ثم اكتشف بعد وقت قصير أنه لم يعد يحبه وأنه ليس سوى عبودية مثل أي عمل يقوم به المرء كارها.

يشعر الآن أنه يتخلى عما تبقى له من سنوات حياته كما يتخلى زبون عن بقية الورقة النقدية التي دفعها للنادل ثمن وجبة طعامه، سيتخلى هو عن هذا المتبقي رغم أنه ليس قليلا. سيتخلى عن كل المدن التي لم يرها، عن كل البحار التي لم تبحر سفينته فوقها، عن قصص الحب التي لم يعشها، عن الأبناء الذين سيحملون اسمه، عن الدار التي لن يتسنى له بناؤها والشجرة التي لن تنمو ويشتد ساقها أمام عينيه. فما دام كل شيء سينتهي في الآخر، فلينته الآن. لقد مات أبوه عن خمس وخمسين سنة. ذات يوم جمعة وكانت أمه قد شرعت تعد طعام العائلة، قال إنه يريد خلال ذلك أن يصلح الجدار الخارجي للمنزل. بعد ساعتين، كان الأبناء قد عادوا إلى المنزل، وكانت الأم قد أعدت المائدة وخرجت لتدعو الأب للانضمام إليهم، لم تجده، تفرقوا يبحثون عنه ثم وجدوه في الفسحة الضيقة التي تفصل الجدار الخارجي عن جدار البيت المجاور، ميتا. كان قد سقط في الفسحة فوق واحد من قضبان حديد البناء، فاخترق القضيب بطنه، وظل ينزف حتى مات.

نقلوه إلى المنزل، وكان جده الذي تجاوز الثمانين وضعف سمعه وبصره يسترخي بين النوم واليقظة في كرسيه الذي لا

يستطيع مغادرته دون عون، قد سمع الضجة فسأل ماذا حدث: قالت له أمه بصوت نائح، ناصر مات، فغمغم بكلمات غير مفهومة وسقط في النوم مرة أخرى.

كانت الأم تدخل غرفته، تغير ملاءات السرير وتمسح الغبار عن الأشياء القليلة في الغرفة وهي تتحدث بصوت مسموع وكأنها تتحدث إليه: الستائر تحتاج إلى غسل. ستبدأ عطلة الأولاد بعد أسبوع، يمكنهم عند ذلك مساعدتي في تعليقها. أسبوع واحد ليس وقتا طويلا. يمكننا أن ننتظر. بدأ الطقس يتغير، لكن الوقت لا يزال مبكرا لرزم ملابس الشتاء. ستأتي أختك لزيارتنا في مطلع الأسبوع. هذا شيء جيد ما دامت صحتها تسمح بذلك. كانت لا تتوقف عن الكلام وهي تقوم بعملها، بينما يسترخي هو في كرسيه بين النوم واليقظة لا يسمع شيئا مما تقول.

وهو يتذكر أيضا عمه وقد أصبح غير قادر على النهوض من فراشه. باع البيت الذي كان يملكه في حي الزهور واستأجرت له أمه منزلا قريبا منها لتستطيع رعايته. بعد شهور لم تعد قادرة على القيام بالمهمة وحدها فاستقدمت خادمة شابة ترعى شؤونه في النهار، لكن الشابة اشتكت من أنه يضايقها وهي تقوم بتنظيفه فتركت عملها. حلت محلها أختها الأكبر سنا والأكثر قدرة على الدفاع عن نفسها.

حين غادر مسكن العائلة في مسقط رأسه إلى العاصمة للالتحاق بالجامعة استأجر غرفة لدى عائلة صغيرة، كانت ربة

البيت تقدم له ما يحتاجه من خدمات، تقوم بتنظيف غرفته في غيابه وتعد له الطعام حين يكون راغبا فيه، تشتري له ما يحتاجه وما لا يحتاجه أيضا. فكان يجد في غرفته بين حين وآخر قميصا جديدا لن يلبث أن يختفي بعد أسابيع لأن ربة البيت اشترت واحدا آخر، ولأن القميص الذي اختفى سيذهب إلى ولدها الوحيد. حين أتم دراسته وباشر عمله في جريدة المساء شعر أنه بحاجة إلى مسكن خاص به، فاستأجر منزلا من أربع غرف صغيرة، بقيت إحداها خالية وقتا طويلا قبل أن يقرر أن يجعلها مكتبته الشخصية، وسرعان ما حجبت رفوف الكتب جدرانها المبقعة وجعلتها مكانا مريحا للعمل.

أزاح الستارة عن النافذة فتدفق الضوء وسقط على المقاعد في الغرفة فأكتسبت لونا فاتحا وكشف عن غبار يغطي المنضدة الصغيرة التي تكدس عليها بعض الكتب إلى جانب علبة دبابيس وقدح جف في قاعه عصير ذو لون داكن واكتسى بطبقة من الفطريات. ولما كان اليوم يوم جمعة فقد كان لديه الوقت ليقوم بما كرهه من الأعمال وأجله أياما طويلة. ذهب بالقدح إلى حوض غسل الأواني في المطبخ، ملأه بالماء وعاد بخرقة مسح بها الغبار عن منضدة الكتابة، ثم عن رف الكتب، والصندوق الذي اعتاد أن يلقي فيه بكل ما لا يحتاجه من الأشياء. كان الغبار قد غير لونه، فهو لم يهتم بنظافة المنزل بشكل خاص، أحيانا كانت الجارة تأتي إليه تطلب منه رأيه في هذه المشكلة أو تلك لأنه أعرف بشؤون الإدارات، تأتيه برسالة جاء بها ساعي البريد

في غيابه أو برغيف ساخن خبزته للتو، تلقي نظرتها الفاحصة على منضدة الكتابة وعلى الطاولة الصغيرة أمام النافذة ثم على بلاط الغرفة وتعرض عليه المساعدة في تنظيف المنزل، كان يرتاب في مقاصدها فيرد في كل مرة: «شكرا، لكني سأفعل ذلك بنفسي، سيكون لدي يوم الجمعة متسع من الوقت»، وهو يعرف أنه لن يستطيع ذلك لأنه يكون قد أجل ليوم الجمعة أعمالا لن يتسع لها الوقت، وأنه سينجز بعضها ويؤجل ما يتبقى ليوم جمعة آخر.

ثم يحل يوم الجمعة ثقيلا مثل ماء راكد، يقضى حسن التمار أغلب ساعاته جالسا على الأريكة، مفرغا، معطل الذهن تماما. لا تخطر له أية فكرة نافعة، لا يشعر بفرح أو حزن، ولا يجد في نفسه القوة لينهض، ليفعل شيئا. يشغل التلفزيون من مكانه، لكنه ينتبه بعد دقائق أنه لم يكن يرى أو يسمع ما يعرض على الشاشة، تزعجه الضوضاء، فيعود ويغلقه من جديد. لا يجد في نفسه القوة ليمضي إلى المطبخ، يعد لنفسه شيئا يأكله، أو يرفع الصحف التي تراكمت فوق منضدة الكتابة.

في المساء كما يفعل عادة قبل الذهاب إلى المقهى دخل الحمام، وقف تحت رشاش الماء، وشعر بالانتعاش، بعد ذلك دعك شعره بالمنشفة المعلقة على خطاف مثبت في باب الحمام ومضى إلى غرفته وهو يصفر لحنا سمعه في واحد من أفلام رعاة البقر. سيذهب إلى ملتقى الأصدقاء في شارع أبي نؤاس، وسيجدهم هناك، أصدقاؤه القدامى، قتيبة الجراح الذي سيواصل

رواية رحلته إلى بولونيا، ورياض عبد الرحيم يضع أمامه كتاب «هكذا تكلم زرادشت» الذي يحمله معه منذ سنة دون أن يتم قراءته، ويلذ له أن يتحدث عن الصفحات التي قرأها حديثا مسهبا، سيتحدثون عن الله والعالم، عن النساء اللائي وقعن في حبهم، عن صولات قاموا بها ومعارك خاضوها وخرجوا منها ناجين أو منتصرين. لم يخرجوا أبدا من معركة مهزومين، لأن الهزيمة لا تليق بهم، خاصة حين يتعلق الأمر بالنساء. سيذهبون بعد الثامنة إلى حانة شامات وسيواصل هشام عبدالله تناول الكحول حتى يفقد القدرة على النهوض، فيسنده الأصدقاء في آخر الليل وهم يغادرون الحانة وحين يبلغون الباب الشرقي يتركونه على أحد المقاعد في حديقة الأمة أو يرافقونه إلى واحد من الباصات الصغيرة المتجهة إلى مدينة الثورة فيمضي إلى منزله، واحد من بيوت فلاحين هجروا أرضهم لأن ما يحصلون عليه قليل، لأن انحباس المطر أثر على الغلة ولأن الأبناء سيجدون في العاصمة عملا، شرطة، جنودا متطوعين أو عمال بناء ينتظمون عند الفجر في طوابير، ينتظرون من يطلب عملهم. يسكنون البيوت الواطئة ذات الساحات الترابية، أرض الغرف الصغيرة أيضا لم تبلط، يلعب الأطفال في الشوارع التي لا أرصفة لها وفي الساحات الترابية التي تفصل البيوت، يتسلقون قضبان نافذة بيت دخله ضيف غريب ليتسلوا بتفحص سحنته، قصة شعره وثيابه الغريبة.

شعر حسن باللهفة للقائهم كما يحدث معه حين يكون لديه

ما يحدثهم عنه: أخبار مثيرة، كتاب اشتراه لتوه، إشاعات همس بها له أحدهم واستحلفه أن يحتفظ بها سرا. لم يكن لديه هذا اليوم سوى خبر جديد واحد، اتفاقه مع رضوان والذي لن يستطيع أن يتحدث به لأحد.

حين بلغ نهاية الشارع لاحظ من خلال الواجهة الزجاجية المطلة لورشة تصليح الأجهزة الكهربائية القائمة على الشارع العام أن صاحب الورشة ينظف جهازا كبيرا بمكنسة كهربائية لا تمتص الغبار كما هو معتاد وإنما تنفخه عن الجهاز فيثير زوبعة غبار عارمة. رفع هذا يده محييا فرفع يده بدوره رادا التحية وتابع طريقه حتى محطة الحافلات.

* * *

عاد إلى المنزل بعد منتصف الليل. حاول أن ينام، لكنه ظل معلقا بين النوم واليقظة وقتا طويلا، كان النوم متعذرا واليقظة متعذرة. يكره هذه الحالة. تختلط في ذهنه الصور، صور النهار وصور الذاكرة، وجه الرجل الذي سيضع نهاية لألمه، وجه أمه حزينا معذبا، نخلة ترتفع فوق سطح دار في زاوية شارع مر به في النهار، نبتة على حافة نافذته كفت عن النمو منذ وقت طويل، قميص مبتل بالعرق لرجل زاحمه على الرصيف وابتعد مسرعا، واجهة محل تجاري يعرفه لم تتغير معروضاته منذ الأزل. لا يعرف متى لاحظها أول مرة، لم تتغير خلال الشهور الخمسة الماضية على أية حال، منذ أن دخله بصحبة أحد زملائه، إشترى

قميصا ودفع دينارا لكنه لم يسترد ما تبقى له لأن صاحب المحل اعتذر بأنه لا يملك عملة صغيرة، وقال له إنه سيرد له الباقي حين يزور المحل مرة أخرى. ولأن صاحب المحل صديق لذلك الزميل لم يعترض، لكنه لم يذهب إليه مرة أخرى، ولو ذهب لن يستطيع أن يغلب خجله ويطالب بما له لدى البائع. يحاول أن يستعيد صفاء ذهنه، أن يدخل النظام في فوضى أفكاره، عبثا. غفا أخيرا، أيقظه بعد وقت قصير صوت ارتطام لم يتبين مصدره. أراد أن يعرف كم بقي من الوقت حتى طلوع الفجر، اضطر للنهوض لينظر في ساعة يده التي اعتاد أن يضعها على المنضدة الجانبية قبل أن ينام. حين تكرر الأمر قرر أن يحتفظ بالساعة حول معصمه. نام أخيرا وحين أفاق في الصباح حاول أن يتذكر أين هو، كان يشعر بصداع خفيف، فتح عينيه وانتظر حتى تزول غشاوة النوم عنهما قبل أن يتبين أنه في غرفة نومه. اعتدل في سريره، بدت له الغرفة غريبة بعض الشيء. كأنه في مكان غريب. لا يتذكر كيف وصل أمس إلى المنزل. يعرف فقط أنه غادر الحانة في وقت متأخر، عند منتصف الليل. وكان يشعر بدوار خفيف. تذكر أنه حلم أنه يسير في ممر يفضي إلى ساحة كبيرة. يغطي جانبا منها نجيل قص منذ وقت قصير كما يبدو من انتظامه وخضرته اليانعة، بدا له المكان أليفا. وأدرك أنه يعرف المكان تماما، لقد حلم به من قبل. حاول أن يتذكر أين يقع هذا المكان، ومتى عرفه، حاول أن يضعه في سياق منطقي، أن يعيده إلى مكانه في الخرائط التي يعرفها، استعرض جميع الأماكن التي

عرفها في حياته، عاش في طفولته في البيت الكبير للعائلة، يتذكر البيت والزقاق، الأزقة القريبة التي قطعها مئات المرات مع رفاقه، والدار التي انتقلت إليها العائلة حين غادرها ثلاثة من الأبناء، بيوت الجيران التي دخلها، بيت جده الذي يقع في الطرف الآخر من المدينة، بيت خالته الذي يصعد المرء إليه على عدد لا يحصى من الدرجات، بيت عمته ذا الساحة الاسمنتية والمطبخ الصغير المظلم، بيوت الأقارب الآخرين القليلين الذين لم يزرهم إلا نادرا، بيت العائلة التي استأجر لديها غرفة حين انتقل إلى بغداد، تذكر المدارس التي تعلم فيها، بيوت الأصدقاء، الساحات والحدائق التي تنزه فيها أو وجد فيها العزلة التي يحتاجها لمذاكرة دروسه، تذكر الجامعة، القسم الداخلي للطلبة، المكتبة العامة، الأماكن التي ذهب إليها مع رفاقه للنزهة، لم يجد هذا المكان في أي منها. ملأته الحيرة. كيف له أن يعرف مكانا بهذا الوثوق دون أن يكون قد رآه، وقد لا يكون موجودا على الإطلاق. لكنه يعرف تماما أنه قد رأى هذا المكان من قبل في المنام، ربما أكثر من مرة. إنه واثق من هذا. لكن هذا الاكتشاف لم يجعله أقل حيرة، كيف تشكلت هذه الصورة، من أين تسللت إلى ذاكرته إن لم يكن لها وجود؟

* * *

حين وصل مكتبه متأخرا، كان لا يزال مبلبل الذهن من أحداث الأمس، أمام الباب إلتقى قيس، الموزع، فغض هذا

الطرف ومر دون تحية. إنه لم يكن على علاقة ود معه. كلا ليس الود هو الكلمة الصحيحة، بل العطف الذي يشعر به الموظفون الأعلى مرتبة إزاء الآخرين من المراتب الدنيا. عطف لم يشعر به حسن التمار إزاء قيس. كان لقيس اسم آخر حين بدأ عمله في فرقة التنظيف التابعة لأحد المتعهدين، كانت فرقة التنظيف المكونة من أربعة رجال تأتي إلى المبنى حين يكون الجميع قد انصرف لتزيل ما تركه العاملون من آثار، رماد نثره أو عقب سيجارة ألقاه على الأرض محرر يعتقد أن استخدام المنفضة عادة برجوازية، وينتقم بذلك من أبيه الذي يصر على حفظ النظام الصارم في البيت، قصاصة ورق أخطأت هدفها إلى سلة المهملات، أو بقعة شاي انسكب على الأرض. كان دبوس أحد هؤلاء الأربعة. وكان رجلا نحيفا طويل القامة برأس صغير أجرد حتى لكأن جسده أراد أن يتطابق في نموه مع الإسم. حين عرف الطريق إلى المنظمة الحزبية حصل على وظيفة ثابتة كفراش، وترافق تقدمه الوظيفي مع تقدمه الحزبي، فأصبح بواب رئيس التحرير، بعد شهور قليلة كانت صلعته اللامعة قد اختفت تحت باروكة سوداء وغير اسمه في دائرة النفوس، فحملت هويته الجديدة اسم قيس صيهود، ومرة أخرى حقق قفزة كبيرة في حياته الوظيفية فعدلت درجته إلى موزع وحصل على منضدة في إحدى الغرف. أصبح منذ الآن يحمل حقيبة سمسونايت مقلدة دفع ثمنها من ماله الخاص. مازحه بعض المحررين وتحدثوا عن ابن الملوح، لكنه لم يفهم شيئا من كلامهم، ولم يخطر له أن

الحديث يتعلق به. ولم يجد قيس في المكتب ليلاه. كانت هناك ثريات وخالدات وابتسامات، ولكن لم تكن ثمة ليلى تبادله التحية في الصباح. ولم تجُد عليه كاتبة الصادرة أسماء بنظرة، رغم كثرة تردده عليها. كان يجد دائما ذريعة لدخول مكتبها، يسأل إن كان ثمة رسائل عليه أن يحملها إلى المتلقين. وكانت تجيبه بحزم دائما وبنبرة لا تخلو من ضيق أحيانا: يكون البريد جاهزا للتوزيع غدا في الثامنة صباحا، كل يوم في الثامنة صباحا، ومرة واحدة في اليوم. تنهي جملتها بغيظ مكتوم وتتابع الكتابة في السجل الكبير امامها، وظل في نظر الجميع دبوس الذي غير اسمه إلى قيس.

لم يكن هذا اللقاء سببا للانشراح، لأنه لم يشعر بالعطف أبدا على هؤلاء الذين لا سلطة لهم والذين يفعلون أي شيء من أجل الحصول على قليل من السلطة، هذا القليل الذي سيستخدمونه في اضطهاد من لا سلطة لهم.

حين دخل المكتب أخبره زميله الذي يشاطره الغرفة أن رئيس التحرير قد سأل عنه، وأن عليه أن يذهب إليه في الحال. ترك الحقيبة الجلدية التي تحتوي على رزمة أوراق بيضاء، مسودة قصيدة لم تكتمل وكتاب «الأغذية الأرضية» لأندريه جيد الذي بدأ بقراءته قبل يومين ولم يتجاوز الصفحة المئة منه، على المكتب وتوجه إلى غرفة رئيس التحرير الذي كان يبحث في هذه اللحظة عن مقال بين كدس من الأوراق. توقف عن البحث وقال بنبرة متبرمة: تختفي الأشياء حين نحتاجها، وتظهر عندما نكون

قد تخلينا عنها. خيل إليه أنه قد سمع هذه العبارة ألف مرة بألف صوت وألف مناسبة، مع ذلك عقب مؤيدا: هذا هو الحال دائما، حين... لكن رئيس التحرير لم يدع له الوقت لإتمام جملته، دعاه للجلوس واكتسبت ملامحه فجأة مظهرا أقل صرامة:

«لدي مهمة ستسر لها. ستسافر اليوم أو صباح الغد في أبعد الأحوال إلى ميسان، وردتنا أخبار عن هرب جماعي من مستعمرة الجذام. ينتشر المرضى الآن في المدينة مثيرين الذعر لدى السكان. أريد تقريرا طويلا معززا بالصور. سأرى مَن مِن المصورين يمكن أن يرافقك. رفع سماعة الهاتف: أريد مصورا يسافر لمدة يومين إلى ميسان.... وأنت؟ ... هذا مؤسف. إنتظرْ لحظة.

أبعد السماعة عن أذنه وقال لحسن: هل تستطيع التصوير؟ فأجابه حسن. نعم. عاد للتحدث في سماعة الهاتف: حسنا، وجدنا حلا للمشكلة.

وضع سماعة الهاتف وأوضح: أحد المصورين في إجازة مرضية، ولا يمكن الاستغناء عن الثاني في المؤسسة. ما دمت تستطيع التصوير فليس ثمة مشكلة. دعهم في القسم يعطونك آلة تصوير.

أجاب حسن: لدي واحدة. أفضِّل أن أستعمل كاميرتي الخاصة، فأنا متدرب على استعمالها.

تناول رئيس التحرير ورقة بحجم بطاقة بريدية، كتب عليها

شيئا، وناولها لحسن: إذهب بها إلى المحاسب ليدفع لك نفقات السفر.

قال حسن: سأسافر يوم غد.

تقطع مهمات مثل هذه رتابة عمله الذي لم يعد يحبه. كان قد حلم قبل خمس سنوات بحياة مهنية أكثر ثراء، أن يطوف العالم مثلا، أو يسافر إلى بلاد بعيدة ينقل منها صورا لم يرها أحد، أن ينشر ما يخدم الجنس البشري، أن يسلط الضوء على أكثر المناطق قتامة في حياة المجتمع وينتصر للعدالة. أن يغير بتقاريره الصحفية وتعليقاته على الأحداث ما يجب تغييره. أن يرغم وزيرا على الاستقالة، أو يحمل القضاء على إعادة النظر في حكم استند إلى القرائن بعد أسابيع قضاها في جمع الأدلة الثبوتية، لكنه اكتشف في السنة الأولى أن الجريدة التي يعمل فيها مثل كل الصحف الأخرى في البلاد لا توفد مراسلين إلى البلدان الأخرى من أجل متابعة حدث لأنها لا تملك المال الكافي، ولأنها لو ملكته فسيحلم جميع عامليها بالحصول على مثل هذه الايفادات، وعرف في السنة الثانية أن الوكالة المركزية للصحافة، وهي الوحيدة التي تعتمد مراسلين في عدد من البلدان، تعتمد في تقاريرها على الوكالات الأجنبية لأن مراسليها يتجنبون الكتابة عن أي حدث مهما كان، حتى أن أحدهم لم يكتب خلال أربع سنوات قضاها في عاصمة أوربية سوى رسالة واحدة إلى مؤسسته يطلب فيها زيادة راتبه، تجنب هؤلاء المراسلون بصمتهم تذكير

الآخرين بهم ولفت الأنظار إليهم، كانوا يريدون أن ينساهم الآخرون فيتابعون حياتهم الهانئة دون منافسة. وأدرك في السنة الثالثة أن أفضل ما يمكن أن يقوم به هو كتابة تقاريره معتمدا على ما تنشره وكالات الأخبار العالمية. فلا يضطر كما يفعل مخبرو الجريدة إلى الطواف بالمؤسسات لالتقاط خبر يتبين بعد كتابته أنه قليل الأهمية. كان بعضهم يطور أدواته وطرقه الخاصة في الحصول على الخبر، وقد حدثه أحدهم كيف أنه حين زار مدير قسم في إحدى المؤسسات، ومن أجل أن يختلس نظرة في الملفات التي كانت تتكدس على مكتب المدير تصنع الإغماء، وحين خرج المدير من مكتبه يطلب المساعدة واستدعاء الطبيب استطاع هو أن يلقي نظرة على الأوراق ويعثر على الخبر الذي جاء من أجله. وكان بعض المديرين يترك المخبر ينتظر طويلا أو يحيله إلى أحد الموظفين الذي يعتذر بدوره بعدم وجود ما هو جديد، لأن هذا البعض كان يفضل أن تجرى معه مقابلات يتشدق فيها بإنجازاته الكبيرة ومشاريعه الأكبر التي يخطط لها. تبددت الأوهام التي بدت له فيها مهنة الصحافة مشروع حياته الكبير، فحتى التقارير والتعليقات التي يكتبها كانت لا تختلف عما يُكتب في الصحف الأخرى، مرهونة بالأحداث اليومية وبسياسة الجريدة أو بالأحرى سياسة الدولة وأقل من ذلك بكثير مزاج رئيس التحرير أو مزاجه الشخصي. ولم يكن محررو الصحف الرياضية أوفر حظا منه، فحين تتقرر مشاركة لاعب في مسابقة عالمية كان يرافقه مدير التربية الرياضية ومدير الحسابات

ومدير التخطيط واثنان من الموظفين الإداريين اللذين يقومان بمهمات أمنية في نفس الوقت ومدرب رياضي. وحين يوفد فريق رياضي إلى بلد آخر يكون عدد مرافقيه من الإداريين أكبر من عدد منتسبي الفريق. وراوده الشك فيما إذا كان ما يكتبه يرتفع على ما كان يعذبه في كتابة الإنشاء المدرسي. يجد نفسه غالبا مضطرا لاستخدام نفس المفردات، وتكرار نفس العبارات الميتة، لا مفردة جديدة، لا تجلٍ يعطي للمفردة معنى جديدا ولا نزوة تعطي اللغة ايقاعا آخر غير ايقاعها القديم. إعتقد أحيانا أنه أصبح أعمى لا يرى إلا ما كان الآخرون قد رأوه قبله ورسموا له صورته، وأنه يتحرك في عالم اتخذ كل شيء فيه صورته النهائية، عالم ليس فيه مجال للسؤال أو الشك. ثمة مفردات محظورة وموضوعات محظورة وصور وحتى أفكار حين تفصح عن نفسها في ابتسامة مرتابة، في رفع الحاجبين أو تضييق العينين. وعلى المرء أن يتدبر أمره ويجد طريقه وسط كل هذا العمى.

* * *

لو أتى الموت مباغتا وبلا ألم، باغته في نومه، أو داهمه مثل النعاس. الزميل الذي رافقه مرة في رحلة عمل إلى الصحراء ظل يداري خوفه بالكلام حين توقف سائق اللاندروفر في مكان ما لحظة ليتأكد من أنه يمضي في الاتجاه الصحيح. لم ير المرء هناك سوى الرمال الهشة على مد البصر، ليس ثمة علامات يمكن أن تساعد المرء في العثور على الطريق. بدأ زميله يتحدث عما

ستكتبه الجريدة لو أنهما ضلا الطريق، فقدا في الصحراء وماتا هناك. تحدث عن العناوين الكبيرة في الجريدة، وكان يشاغل بذلك نفسه عن التفكير في أطفاله الثلاثة، هل سيحصلون من صندوق التقاعد على ما يكفي ليتابعوا حياتهم من غير ضائقة؟ كان هذا الزميل يعزي نفسه ويطرد الخوف عن قلبه بهذه الأحاديث التي استمع إليها مرغما ولم يحبها. لم يتيهوا في الصحراء، ولم يموتوا عطشا. بلغوا غايتهم وتعرفوا على حيوات تتاخم العدم. نباتات تحولت أوراقها إلى أشواك تحتفظ بقليل الماء الذي توفر لها لتتابع حياتها، ونساء ورجالا يجرفون الرمل، يريدون أن يجعلوا من أرض الصحراء التي حصلوا عليها هدية حقولا مثمرة. يعملون بدأب وصبر وينتظرون الماء الذي سينساب ذات يوم في القنوات التي حفروها. سيمر وقت طويل حتى تنبثق أول سنبلة في الحقل أو تنضج أول ثمرة، وسيكون عليهم أن يصبروا على الجوع والعطش ويكتفوا بأقل القليل من أجل ذلك اليوم المقبل.

حياة فائضة، قال ذلك بصوت مسموع وكأنه يريد أن يعطي الفكرة قوة خاصة، لكنه في اللحظة التي تلفظ فيها بهذه العبارة بدت له غريبة بعض الشيء، ربما كان قد فكر أكثر من مرة قبل الآن أنه ألقي إلى هذا العالم دون أن يُسأل، وأن وجوده في هذه الحياة أمر فائض، لكن ثمة حيوات كثيرة فائضة لا يسعى المرء للقضاء عليها، ثمة أشياء كثيرة فائضة لا يحاول التخلص منها. بوسعه أن يعيش حياته الفائضة باسترخاء أكبر، دون قسر، دون

أن يحلم بأفعال كبيرة. سيقوم مثلا بتنظيم المنزل الذي أهمل تنظيفه وقتا طويلا، يزيل الغبار ويرفع الأشياء الفائضة عن المنضدة الصغيرة في زاوية الغرفة والتي لم يستخدمها منذ أن انتقل إلى هذا المنزل، وكان لا ينتبه إلى وجودها إلا عندما تأتي الجارة وتمرر أصبعها فوق سطحها لترسم خطا يظهر سمك طبقة الغبار عليها، فيعرف أنها تريد أن تلومه بهذه الطريقة الصامتة على إهماله.

* * *

وصل موقف السيارات المسافرة إلى ميسان متأخرا فكان عليه أن يتخذ مكانه خلف السائق عند النافذة اليسرى لأن المقعد الأمامي الذي يفضله كان مشغولا، يحتله رجل نحيف يرتدي سترة بنية بهت لونها وبدت متربة. واحتلت بقية المقعد الخلفي شابتان جعله اختلاف ملامحهما الكبير يستبعد أن تكونا أختين وقدر أن علاقة صداقة تربطهما، وقد حصل على ما كان يحرص عليه دائما، المقعد عند النافذة حيث يستطيع أن يراقب الطريق، فرغم تشابه الشوارع والأراضي الخالية بين المدن، إلا أنه كان يأمل دائما أن يجد ما يستحق الاهتمام أو يثير الدهشة، ويرى ما لا يراه الآخرون، أرنبا بريا يمرق في الحقل ويختفي بين الأدغال، طائرا غريبا يحط فوق سلك، راعيا يقود قطيع غنم، معزة تقف على قائمتيها الخلفيتين تحاول بلوغ أوراق شجرة غضة، سورا من الطين يحيط ببستان لا يستطيع التعرف على

أشجاره لأن ما توارى منها وراء السور أكبر مما ارتفع فوقه أو مجرد نبتة خضراء تتحدى جفاف ما حولها. وكان خلال ذلك يبحث عن أجوبة لأسئلة شغلته في الأيام السابقة، ويحاول أن يجد حلولا لمعضلات قد يواجهها، يدخل في حوارات مفترضة مع أصدقائه أو زملائه، وحين يعتقد أنه عثر على فكرة فذة يخشى عليها من الضياع، يستل ورقة وقلما كان يحملهما دائما في أحد جيوبه ويثبت ملاحظة صغيرة ستقوده إلى الفكرة فيما بعد. بعد ساعة وكانت السيارة قد غادرت شوارع المدينة المزدحمة وسلكت طريقا وسط الأراضي المجدبة إلتقطت إذنه جملة من قبيل

"That's what I mean"

فانتبه إلى أن إحدى المرأتين كانت تتحدث بالانكليزية طول الوقت بينما كانت رفيقتها تجيب بهزة من رأسها أو بصوت هامس بالعربية. وفي لحظة ما تدخل الرجل الجالس في المقعد الأمامي وصحح للمرأة التي قالت إنهم لن يصلوا قبل الثانية بعد الظهر، قال إنهم سيكونون في المدينة بعد الحادية عشرة بقليل. تحدث بانكليزية طليقة فاجأت المرأتين فلم تعترض أي منهما على تطفله، وكان على الرجل أن يقدم نفسه. قال إنه عاد قبل أسبوعين فقط من انكلترة، إنه أنهى دراسته هناك في هندسة الجسور، وأنه يعود إلى منزل عائلته في العمارة حيث يقيم وقد كان عليه أن يتابع بعض المعاملات الرسمية في بغداد. هنا كان لا بد من نظرة ثانية لتقييم الرجل. نظرة تُسقط من التقييم سترته

المتربة وتغض النظر عن الخَرْق الصغير عند الكتف. بعد ذلك كفت المرأة عن التحدث بالانكليزية. ربما كانت قد ظنت من قبل، أن أحدا لا يفهم حديثها.

حين وصل حسن التمار مدينة العمارة وعبرت السيارة أول جسور المدينة، جسرا صغيرا ضائعا بين شوارع متشعبة ضيقة، رأى مدينة بلون الطمى وأدرك أن المرء لن يجد هنا قبابا مذهبة وقصورا من أزمنة سحيقة ومتاحف يتزاحم الزوار عند مداخلها، فتوجه مباشرة إلى مبنى المحافظة. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، وهو الوقت المناسب لمثل هذه الزيارة، حيث يكون منتسبو المؤسسات قد نفضوا عنهم الكسل وقصص الأمس وبدأوا بالعمل.

إعتبر نفسه محظوظا لأنه وجد نفسه بعد قليل في مكتب المحافظ دون أن يمر بكتبة ومديرين يوضح لهم مهمته. غرفة المحافظ غرفة صغيرة فيها أرائك ذات قماش أصفر متسخ. غرفة شديدة التواضع خلاف ما عهده في مكاتب المسؤولين، حيث تبدو المسافة بين الباب ومنضدة الكتابة الفارهة للمسؤول بعيدة جدا، يقطعها الزائر في بعض الأحيان مرتبكا وهو يشعر أنه موضوع مراقبة وفحص منذ أن وضع قدمه في الغرفة. وكان بعض المسؤولين يتظاهر بالانشغال بالملفات على مكتبه ولا يرفع بصره إلى القادم إلا بعد أن ينطق هذا بالتحية، ستتاح للزائر في هذه الحالة فرصة لتشكيل انطباع سريع عن الشخص الذي يجلس

وراء المنضدة، لكنه سيعرف أيضا أين يضع نفسه منه وسيشعر بقلة أهميته سيما إذا كان قد مر بالسكرتير وانتظر طويلا قبل أن يُدعى للدخول. لاحظ حسن التمار أن المحافظ رجل تجاوز الخمسين، ليس في مظهره ما يفصح عن السلطة التي يتمتع بها كمسؤول كبير. ولا حتى ذلك التواضع الزائف الذي يظهره بعض الكبار ليذكروا الآخر بمكانتهم. رحب بضيفه، وعامله بالاحترام الذي كان يُعامل به رجال الصحافة يومذاك. أبلغه أنه سيحل ضيفا على المحافظة خلال إقامته وأنه سيجد التسهيلات التي يحتاجها في عمله. صحح المحافظ المعلومات التي عرضها حسن التمار والتي كانت قد اتخذت طابع الشائعات فليس ثمة هرب جماعي، وإنما هم خمسة مرضى هربوا أول أمس عاد منهم اثنان لأن عوائلهم رفضت استقبالهم وليس ثمة ما يدعو للقلق بشأن الثلاثة الآخرين، سيعودون بعد يوم أو يومين، لأنهم عاشوا سنوات طويلة في المستعمرة ولن يستطيعوا أن يتدبروا أمرهم في المدينة.

أصغى إلى المحافظ يتصل بمدير مستشفى المدينة وينقل إليه رغبة ضيفه في الحصول على بعض المعلومات، وبأحد موظفيه يطلب منه وضع سيارة تحت تصرفه تنقله إلى دار الضيافة حيث سيقيم ضيفا على المدينة، وتحمله في صباح الغد لزيارة المستشفى الجمهوري ومستشفى الجذام.

حين وصل دار الضيافة كانت الشمس لا تزال تضيء جانبا من حديقته الواسعة، اتخذ مكانه في رأس المثلث الذي يحدد الماء اثنين من أضلاعه، راقب سمك الزعيم يلقيه الماء على

الافريز المحيط بسور الحديقة، يستلقي برهة في ضوء الشمس قبل أن ينحدر عائدا إلى الماء من جديد، وفي السابعة مر بصالة الاستقبال، كان ثمة إمرأة ورجل يجلسان إلى إحدى الموائد القليلة في الصالة، ولم يكن ثمة ما يبقيه هناك فتوجه إلى صالة الطعام حيث وجد ضيوفا آخرين كانوا قد انتهوا من تناول طعامهم فلم يطيلوا المكوث في الصالة. تناول طعامه ثم عاد إلى غرفته. وقضى ما تبقى من اليوم في متابعة قراءة كتاب «الأغذية الأرضية»، الذي ستستغرق قراءته وقتا أطول مما تستغرقه قراءة كتاب آخر، لأنه واحد من الكتب التي كان يقول عنها إنها تشبه الحلوى، لا يلتهمها المرء التهاما وإنما يأكلها على مهل ليستمتع بمذاقها فترة أطول. حين نام حلم أنه يقف وسط حشد من الناس في قاعة مزدحمة، يُخفق في شق طريقه إلى الباب الذي يبدو بعيدا عنه، لكن في لحظة ما ينشطر الحشد ويفتح له طريقا للمرور، فيمضي فيه دون عجلة متجها إلى الباب حيث تضيء شمس عمودية الفناء الواسع الخالي تماما، وقف يبحث عن طريق للخروج فلم يجده، أصيب بالذعر وإلتفت مترددا في العودة إلى القاعة. في هذه اللحظة حطت يد على كتفه فأجفل، هنا أفاق من نومه، تقلب في فراشه، استلقى على ظهره، وشعر بالحيرة أين يضع ذراعيه، مدهما إلى جانبه ثم فردهما ثم شبك يديه فوق صدره، بدا له هذا الوضع أول الأمر مريحا، ثم ما لبث أن شعر بالحاجة إلى تغييره، انقلب على جنبه وشعر بالحيرة مجددا أين يمكن أن يضع ذراعيه. أمر لم يكن قد شغله من قبل، ولم يعرف

أين كان يضعهما في كل السنوات الماضية، انقضى وقت غير قصير قبل أن ينام ثانية. نهض في الصباح وهو يشعر بشيء من الارتباك بسبب هذا الحلم، حين فتح عينيه وقع بصره على آنية زهور من زجاج بوهيميا لم يكن قد انتبه إلى وجودها في المساء، عكست حزمة ضوء باهرة. وهو لا يستطيع تحديد لونها الآن، ليس أسود ولا بنيا ولا ارجوانيا، ربما يكون مزيجا من كل هذا، وفكر أنه أخطأ إذ لم يسدل ستائر النافذة حين ذهب إلى النوم. نهض متثاقلا، إغتسل وغير ملابسه وتوجه إلى قاعة الطعام. تناولُ الطعامِ في فندق طقسٌ يحبه، لأنه سيجرب أطعمة لم يعتد تناولها في مسكنه، حيث يُعِد وجباته بقليل من الصبر ويتناول إفطاره واقفا أحيانا لأن الوقت لا يتسع لجلسة هادئة. كان وحيدا في صالة الطعام، ربما كان الآخرون قد تناولوا طعامهم في وقت مبكر وغادروا الدار.

تناول إفطاره في غير عجلة ثم توجه إلى صالة الاستقبال فوجد نفس الرجل والمرأة اللذين رآهما في المساء يجلسان إلى نفس المائدة التي كانا يجلسان إليها بالأمس صامتين ساكنين وكأنهما لم يغادرا مكانهما منذ الأمس.

* * *

وصلت السيارة ناحية البتيرة وتوقفت أمام جسر صغير فهبط منها الطبيبان يصحبهما حسن التمار. وقد لاحظوا حتى قبل أن يعبروا الجسر حركة غير عادية أمام المستشفى، لكن الحارس الذي كان يقف عند الطرف الآخر من الجسر أسرع موضحا قبل

أن يُسأل: عاد الثلاثة الآخرون. كان هذا كافيا لتفسير الحركة النشيطة عند مدخل المستشفى، بناية بيضاء من طابقين تقع على بعد أمتار من الجسر وتمتد يمينا، وقد اكتشف التمار فيما بعد أنها أقيمت في جزيرة محاطة بالماء لا يصلها المرء إلا عبر الجسر القصير. دخل الثلاثة البناية وتوجهوا إلى غرفة مدير المستشفى الذي كان بانتظارهم. كان قد أغلق توا ملفات المرضى الثلاثة العائدين، وكان عدد من رفاقهم في المرض قد تجمع في الشارع أمام المبنى، لكنهم ما لبثوا أن عادوا مع الثلاثة العائدين إلى أكواخهم في الجزيرة. عرف حسن التمار من المدير أن عدد نزلاء المستشفى ثلاثمائة مريض، وأن عدد مرضى الجذام خارج المستشفى أكبر بكثير، حيث لا توجد أحصائيات دقيقة بهم. أوضح أيضا أن طبيبا لم يسبق له أن عاين مريضا بالجذام قد لا يستطيع تشخيص المرض. رافقه الأطباء في جولة ليس داخل المبنى الأبيض وإنما في القرية التي تشبه القرى الأخرى في كل شيء تقريبا. لقد غادر المرضى البناية البيضاء وأقاموا أكواخا ريفية لسكناهم. حيث تمتد إقامتهم في المستشفى سنوات طويلة، يقضي البعض عمره فيها. أعادوا إقامة النظام الاجتماعي الذي عرفوه، فاختاروا من بينهم قضاة شرعيين، تزوجوا وأنجبوا. وكما ينبغي لقرية يزيد عدد سكانها على الثلاثمائة أقاموا دكانا يوفر لهم بعض ما لا يحصلون عليه من إدارة المستشفى، علبة سكاير أو علبة كبريت أو لبان. ألقى حسن التمار نظرة على بعض الأكواخ من خلال أبوابها المفتوحة دون أن يجد في نفسه الجرأة

لدخول أي منها، رأى فرشا، قدورا وأواني وكل ما عهده المرء في البيوت الريفية الفقيرة. كانت الأكواخ متشابهة لا تخفي أسرارا. روى له الأطباء أن طبيبا بريطانيا عمل في المستشفى سنوات طويلة واعتاد أن يلعب الكرة مع المرضى، أصيب بالعدوى. حدث ذلك منذ وقت طويل، أما الشخص الآخر الذي انتقلت إليه العدوى فقد كان ممرضا في المستشفى، وقف في مواجهته، أكثر انكسارا من كل المرضى الآخرين. لم يُدعَ للحديث عن آلامه، وبدا وهو يقف على مسافة ثلاثة أمتار كأنه قد فقد لسانه. سار التمار برفقة الأطباء على طول الشارع الذي يدور عند نهاية الجزيرة وينتهي حيث يقوم الجسر الصغير، يتبعهم المرضى، كتلة بشرية لا صوت لها. عيونهم شاخصة إليه، يتحركون مثل مخلوقات من كوكب آخر. يقفون حين يقف الأطباء، على مسافة ثلاثة أمتار دائما، ويتابعون مسيرتهم حين يتابع الأطباء السير. كان شائعا أن المرض ينتقل بالتماس، وهو ما يخشاه الأصحاء، وكانوا يدركون أنهم يمتلكون سلاحا قد يعمدون إلى استعماله عند الاضطرار. «يهاجمون إذا غضبوا»، قال الطبيب. لم يكن لديهم ما يغضبهم في ذلك اليوم. راقبوا بفضول الضيف ذا الشعر المسدل حتى الكتفين والقميص قصير الأكمام المرسوم عليه علامة لم يستطيعوا أن يفكوا لغزها، هدية من صديق عاد من رحلة قصيرة إلى أوروبا.

رأى التمار أيدٍ وأقداما سقطت أصابعها، تفتت دون ألم، وأنوفا تآكل نصفها وتذكر أيد مشابهة رآها بين حين وآخر، أيدي

متسولين يستعطفون بها المارة. ربما كان ذلك جذاما. من يدري. شعر بالذعر من فكرة أنه ربما يكون قد لامس يدا مجذومة مرة. وقرر أن يكون أكثر حيطة حين يلقي بقطعة نقود صغيرة إلى أحد المتسولين.

حين عاد إلى غرفته في دار الاستراحة عصر ذلك اليوم وكان لديه متسع من الوقت تذكر الرسالة في جيبه. رسالة وصلته منذ شهور من قارئ من مدينة العمارة، يتحدث فيها عن بؤس حياته، عن انكساره ويأسه حتى أنه لن يتحرك من مكانه لو انهدم البيت فوق رأسه. قرأ الرسالة يوم وصلته فتركت في نفسه جرحا، وحين عزم على السفر إلى هذه المدينة تذكرها، ووجدها دون بحث طويل في كدس من الرسائل التي يحتفظ بها في صندوق خاص. وضعها في جيبه، وقرر أن يبحث عن المرسل إذا سنح له الوقت. غادر دار الاسترحة واستقل سيارة تاكسي إلى شارع التحرير، عنوان صاحب الرسالة. حين هبط من التاكسي استقبله رهط من الأطفال ازداد عددهم بعد كل خطوة. تنافسوا في الإجابة عن أسئلته، وتطوعوا لمرافقته إلى المكان الذي يريد. قال أحد الأطفال إن ماجد الأسعد هو مدير الأوقاف العام في المدينة، فانبرى ثلاثة آخرون وصححوا له: أبوه هو مدير الأوقاف، أما ماجد فهو تلميذ في المدرسة الثانوية. قالوا إنه لا يسكن في هذا الشارع ولكنهم يستطيعون أن يقودوه إلى حيث يسكن. أربكه أن ما عرفه لا يطابق ما جاء في الرسالة ووقع في حيرة، تردد في متابعة التحري، وشعر بالحرج وهو يقف وسط

رهط الأطفال الذين وجدوا تسلية عظيمة في الحديث إلى هذا الغريب، إلى واحد من الراشدين لا ينهرهم، أو يغلظ لهم القول. وقبل أن يحسم أمره في قبول عرضهم أو رفضه رأى شابا يقبل من امتداد الشارع يرافقه اثنان من الأطفال، حين رآه الآخرون صاحوا بصوت واحد: ها هو قادم. لا بد أن أحد الأطفال قد سبقه إلى دار ماجد الأسعد أو ربما خدمته صدفة نادرة فالتقاه أمام دكان البقالة فأتى به إليه. وجد نفسه أخيرا مع الشاب كاتب الرسالة الذي لا يسكن كوخا من طين بل بيتا يليق بموظف حكومي كبير. مضى مع الشاب متجهين إلى الشارع العام يتبعهما رهط الأطفال. سأل حسن إن كان ثمة مقهى قريب يستطيعان الجلوس فيه فقاده الشاب إلى شارع آخر، مرا بواحد من مقاهي الأرصفة، لكنهما أدركا أنهما لن يستطيعا فيه التخلص من ملاحقة الأطفال. قال الشاب: ثمة مقهى آخر على بعد مئتي متر. مضيا إلى المقهى وحين غابا في صالته نصف المعتمة تفرق الأطفال وهم يضجون مثل فريق منتصر.

اختارا زاوية هادئة وطلبا شايا. سأل حسن وقد أخرج الرسالة من جيبه: وإذن ما قصة هذه الرسالة؟

كان على الشاب أن يشرح لحسن التمار أن الأمر يتعلق بقصة متخيلة وليس بنداء استغاثة شخصي، وقال إنه يكتب مثل هذه القصص بين حين وآخر، وتحدث عن مشاريعه حين يكون قد أكمل الدراسة، رأى حسن التمار في الشاب صورته حين كان في مثل سنه قبل عشر سنوات، رأى الشاب الذي كتب قصيدة أرسلها

إلى برنامج «ما يكتبه المستمعون» وانتابته رعدة حين سمع اسمه ينطق في الراديو، ثم تلا صوت دافئ القصيدة، رأى الشاب الذي كتب مقالات مزقها في اليوم التالي لأنه لم يعرف أين يمكن أن تنشر، الشاب الذي حمل قصيدته إلى معلم العربية، فألقى هذا عليها نظرة ثم التفت إلى التلميذ التالي دون أن يقول كلمة واحدة بشأنها. تبادل الأحاديث مع ماجد الأسعد عن المدينة، عن مولدة الكهرباء التي تضيء نصفي المدينة بالتناوب، عن الكتابة واللغة وعن خطط الشاب بعد الإنتهاء من الامتحانات، تحدثا كصديقين وضحكا معا كصديقين ثم افترقا كصديقين، لكنهما لم يتبادلا العناوين، ولا دعا حسن الشاب لزيارته في مكتبه إذا ما جاء إلى بغداد. كان يدرك أنه لم يعد يملك الوقت لصداقات جديدة.

حين اقترب المساء وكان نصف المدينة قد غرق في الظلام بالفعل قرر العودة إلى دار الضيافة وقد عزم على تسجيل بعض الملاحظات التي سيحتاجها عند كتابة تقريره الصحفي.

كان قد بحث في اليوم السابق عن مدخل يقربه من المدينة التي يزورها أول مرة، لكن ياقوت الحموي لم يسعفه فهي ليست سوى «كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط»، لم يحدثه عن مياهها السخية، عن دجلة يتفرع إلى نهري المشرح والكحلاء، عن القرى العائمة في الماء، عن صيادي الأسماك يخرجون بفوانيسهم حين يحل الظلام، ولم يكن يعرف أن الأسماك تحب الضوء.

لم يكن أيضا قد سمع شيئا عن نخيل المدينة كما عرفه عن البصرة ولا عن برتقال أو رمان كما شاهده في ديالى، تعرف على المدينة في سمكة طازجة أهداها إليه صديق قادم من هناك، لم يعرف ما يصنع بها فأهداها لصديق آخر، وسمع عن فضتها التي لم تدخل حياته إلا مرة واحدة على صورة نخلة أهدتها الجريدة لمحرريها في عيدها العاشر، ولم يعرف مصدر الأهزوجة التي اختتم بها أحد الحاضرين في حفلة للأصدقاء فاصلا من الغناء وهو في نشوة السكر: «شلون تموت وانت من أهل العمارة» ولم يسمع أحدا من قبل يَدَّعي أنه محصن ضد الموت. لكنه استطاع أن يفهم رغبة صبية تحلم بحياة أكثر رفاهية في مدينة كبيرة: «ارد أشرد لبغداد واركب قمارة.»

أحب المدينة المغتسلة بمياه أنهار كثيرة ووجد الفرصة مواتية ليمضي أبعد من ذلك، إتصل برئيس التحرير وشرح له حقيقة الوضع. وإذن ما من سبب للعجلة، سيكتب تقريرا عن حياة المستعمرة بوجه عام. كان لديه متسع من الوقت ليرى أكثر مما رأى. تابع سفرته جنوبا في قارب بمحرك يعمل بالكيروسين. ووصل البصرة بعد عشر ساعات. حين ذهب للنوم في تلك الليلة والليلة التي أعقبتها، شعر أن السرير يتأرجح تحته برفق مع الموجة، وكأنه ينام في قارب. في البصرة تجول في سوق الملح واشترى توابل من سوق الهنود وهو يدرك أنه لن يعرف ما يصنع بها. ربما أهداها لصديق أكثر ولعا بفنون الطبخ. تنزه بمحاذاة النهر وزار جزيرة السندباد مدفوعا بما علق في ذاكرته من

مغامرات ألف ليلة وليلة. لكنه لم يعثر فيها على لوح من سفينة محطمة ولا بقية من قشرة بيضة الرخ العملاقة، ولم يجد آثرا لأقدام السندباد. لم يجد سوى عشب أخضر وأشجار أقل كثافة مما كان يتوقع تتوزع على طول الساحل. حين شعر بالجوع عاد إلى المدينة ودخل أول مطعم مر به، سأل عن شيء يأكله فوضع النادل أمامه سمكة موسى، تأملها بريبة وتذوقها بحذر.

* * *

وصل رضوان إلى شارع سعدى قبل السابعة بقليل. قطع الشارع حتى النهاية وبدلا من أن ينثني عائدا فضل الدوران حول كتلة البيوت إلى يمينه والعودة من شارع مواز. فكر وهو يرسم في ذهنه خارطة تجواله: لا بد أن يكون حسن التمار قد نهض من نومه الآن، ربما كان يغتسل أو يتناول إفطاره. فكر إنه لا يعرف شيئا عن عادات هذا الرجل غريب الأطوار. ربما يكون واحدا من أولئك الذين يقضون الليل في القراءة، أو تسطير مقالات لا يقرؤها أحد، هذا ما يعتقده على الأقل، فهو نفسه لا يقرأ الصحف ويفضل عليها أخبار وتعليقات الإذاعة. عندذاك سينام في وقت متأخر، في الثالثة أو الرابعة صباحا، سينام ساعات قليلة ويذهب إلى مكتب الجريدة متأخرا، ربما نام جل النهار وبدأ عمله في المساء. فهو يعرف أن بعض الذين يعملون في الصحف، يعملون حتى الفجر، وينتهي عملهم حين تكون الجريدة قد أصبحت جاهزة للتوزيع.

قطع الشارع ثانية وقام بالدورة حول كتلة البيوت مرة أخرى وحين وصل الشارع العام بحث عن مقهى لكنه لم يجد سوى دكاكين لبيع المواد الغذائية لم تكن قد فتحت أبوابها في هذه الساعة. ثم رأى محطة الباص، إنها بعيدة قليلا عن الشارع، لكنها مكان آمن للمراقبة، فهي مزدحمة في معظم أوقات النهار، ولن ينتبه أحد إلى تكرر وقوفه فيها، بعد خمس دقائق كان عدد المنتظرين يزيد على عشرة أشخاص، وحين وصلت الحافلة لم يبق منهم سوى اثنين، كان هو ثالثهما. تأخرت الحافلة التالية وبدأت المحطة تزدحم شيئا فشيئا. سمع شخصا ينادي «قاسم»، أجفله النداء، فقد كاد أن ينسى اسمه، إلتفت إلى مصدر الصوت فرأى شابا يقترب من أحد المنتظرين ويحييه بحراره. كان محل بيع المواد الغذائية الأقرب إليه قد فتح أبوابه خلال ذلك وبدأ صاحب المحل ينقل كراسي يضعها خلف منضدة صغيرة على الرصيف أمام الواجهة الزجاجية. دخل المحل واشترى فطيرة تناولها على مهل وهو يجلس على واحدة من تلك الكراسي على الرصيف. حين بلغت الساعة العاشرة، وكان قد قضى في المكان ما يقرب من ثلاث ساعات قطع خلالها الشارع ثلاث مرات جيئة وذهابا، قرر أن ينهي ترصده ذلك الصباح ويعود إلى البيت. فكر أنه ربما كان عليه أن يجمع المزيد من المعلومات عن التمار، فلا يضيع الوقت في جولات لا طائل وراءها.

* * *

سمع حسن التمار وهو يضع المفتاح في ثقب الباب صوتا، حركة بين أشجار الحديقة الخلفية أحدثت صوتا، فجفل. كان قد نسي في الأيام الثلاثة الماضية ألمه الكوني والرجل الذي يترصده لينهي هذا الألم. إستدار بحركة سريعة ملصقا ظهره بالباب، لأنه كان يدرك أن الموت سيخترقه من ظهره. نظر حوله فلم ير أحدا. دخل المنزل وأغلق الباب. اتجه إلى غرفة نومه مباشرة، هناك فتح حقيبة السفر وأخرج الأفلام التي سيذهب بها غدا إلى مكتب الجريدة، والأوراق التي كتب عليها ملاحظاته. ثم تذكر السلحفاة في الكيس الورقي التي قدمت له هدية، وكان قد أبدى فضوله إزاءها حين مر بها مع مرافقيه في منطقة ذات جداول وبرك مياه كثيرة، فأخرجها ومضى بها إلى الحمام. هناك ملأ طستا بالماء وضعها فيه. فكر في هذه اللحظة أنه أخطأ بقبولها هدية. لا بد أن تكون جائعة، وهو لا يعرف ما الذي يستطيع أن يقدمه لها. ثم قرر أن يطلقها في الصباح في حديقة المنزل، لعلها تجد هناك شيئا تأكله. أفرغ حقيبته، ذهب بالملابس التي اتسخت إلى الحمام، وأعاد «الأغذية الأرضية» إلى مكانه على رف الكتب فوقع بصره على «مغني اللبيب» لا يزال في نفس موضعه على الرف، وتذكر أنه كان عائدا من المدرسة برفقة اثنين من رفاقه، وكان لا يزال صبيا، رأوا في الشارع كهلا يحمل رزمة من الأوراق، بل أنهم لم يروه في الواقع إلا حين تعثر فسقطت أوراقه وتبعثرت على الأرض. أسرع الثلاثة لنجدته، جمعوا الأوراق، وحين أعاد الكهل النظام إلى رزمة أوراقه شكرهم، وإمعانا منه في

إظهار امتنانه سألهم عن أحوالهم في المدرسة، إن كانوا يجدون متعة في التعلم وأي الدروس يحبون. وحين شكوا له من قلة مصادرهم في بعض الدروس وعنت معلميهم عرض عليهم مساعدته: «تستطيعون أن تجدوا لدي بعض ما تحتاجونه، في أيام الجمعة أكون دائما في المنزل.» أشار إلى بيت أبيض على بعد أمتار، يرى المرء من خلال بوابته الحديدية الرمادية حديقة تلقي أشجارها ظلا كثيفا على الممر خلفها: «ذاك هو منزلي.»

بعد أسابيع وكان على حسن التمار مثل غيره من تلاميذ صفه أن يكتب شيئا عن تأريخ العراق القديم، ولم يعرف من أين يأتي بما لم يرد ذكره في الكتاب المدرسي، تذكر الكهل الذي لم يكن يعرف اسمه في ذلك الوقت، فانسل صباح يوم الجمعة من المنزل قاصدا البيت الأبيض ذا البوابة الحديدية الرمادية. وقف أمام البوابة ونظر عبر ثغرات الزخرفة في قسمها الأعلى، كان الكهل يرش حديقته، سهل هذا على حسن التمار الأمر فنقر بأصابعه على البوابة لينبه الكهل إلى وجوده. حين رآه هذا ألقى بصنبور الماء على عشب الحديقة وفتح له البوابة. قال حسن بتردد: عرضت علينا المساعدة قبل أيام، أنا أحتاج إلى مادة عن تأريخ العراق القديم. قال الكهل: إتبعني. تبعه حسن بخطوات حذرة مثل حيوان يخشى الوقوع في فخ، لكنه ما أن دخل الصالة ورأى رفوف الكتب التي تغطي ثلاثا من الجدران حتى تخلى عن تحفظه ووقف حائرا لا يعرف أين يبدأ.

أحس لحظة أخذ الكتاب بين يديه بأنه كبر بضع سنوات دفعة

واحدة وأنه لم يعد ينتمي إلى شلة الصبيان التي شاركها حتى يوم أمس التسكع في الطرقات، شاركها تسلق سياج حديقة الجيران من أجل ثمرة لم تنضج بعد.

«حين تكون قد قرأته تعال ثانية وسأعطيك كتابا آخر.»

نظر إلى رفوف الكتب المزدحمة بأغلفة ذات زخرفة أنيقة وكتابات بلون ذهبي، واختار دون تردد الكتاب الذي سيكون بين يديه في المرة القادمة.

صار يزور مصطفى الجابر كلما أنهى قراءة كتاب، يعود به إليه ليستعير كتابا جديدا، في مرات قليلة سمح له أن يأخذ معه أكثر من كتاب. قرأ بخلاء الجاحظ وزهديات أبي العتاهية وأمضى ساعات طويلة وهو يطوف في معجم البلدان، ويستل من العقد الفريد اللؤلوة بعد الأخرى، قرأ جبران خليل جبران وايليا أبو ماضي، ميخائيل نعيمة ورشيد سليم الخوري، ثم مر بعدد كبير من كتب النحو والبلاغة، أعانه منهاج محمد الأنطاكي على تعلم الأدوات ما نصب منها وما جزم وشرح ابن عقيل على حل معضلات الإعراب. أعاد قراءة ألفية بن مالك حتى كاد يحفظها. لم يعد الصبي الذي لا يهمه سوى إتمام الواجب المدرسي بأسرع وقت وأقل جهد، بل صار يتحدث مع مصطفى الجابر في شؤون الأدب واللغة، وبعد ذلك في شؤون الحياة. حدثه الجابر عن زوجته التي ماتت وهي في الأربعين، عن ابنه الوحيد الذي بُعث للدراسة في فرنسا والذي أقام هناك، تزوج وأنجب. كان يأتي لزيارته مرة كل سنة أو سنتين. يمكث أياما ثم يعود. قال له

ضاحكا أن الجيران كانوا يسمونه الفرنسي، رغم أنه كان يبذل جهدا في أن يجاريهم في كل شيء، أطلقوا عليه هذا اللقب حين جاء مرة مع زوجته الفرنسية وولديه الصغيرين.

دأب على زيارة مصطفى الجابر أكثر من سنتين. كان يقول له: لا حاجة بك لشراء الكتب، إلا ما لا تجده هنا، ولم يكن هناك ما لم يجده، هذا ما اعتقده على الأقل. في السنة الأخيرة تعرف على الأدب الغربي مترجما إلى العربية، قرأ «إبك يا بلدي الحبيب» لـ ألان باتون و«الحقيقة ولدت في المنفى» لفانتيلا هوريا، قرأ دستايفسكي واتماتوف، أميل زولا ووليم فولكنر، ايتالو كالفينو ودينو بوزاتي وأندريه جيد وأندريه مالرو.

ثم أنه ذهب إليه ذات يوم، كان قد مضى اسبوعان على استعارة آخر كتاب منه، حمل «مغني اللبيب» ليعيده إليه. كانت البوابة الحديد مفتوحة على مصراعيها، ثمة شاحنة كبيرة تقف أمامها، ورجلان يقفان في الممر المؤدي إلى باب المنزل. يرتدي أحدهما ملابس العمل بينما يبدو الآخر غريبا في أناقته العفوية. رفع رجل ثالث الحاجز الخلفي للشاحنة التي كانت تحمل أثاثا بدا له مألوفا، أرائك، رفوفا، أجهزة منزلية وأشياء أخرى يصعب تعريفها تتكوم فوق بعضها في غير نظام. تردد قليلا ثم عبر البوابة قاطعا الممر الذي يقسم الحديقة الأمامية إلى حيث يقف الرجلان. نظر إليه الرجل الأنيق ذو اللحية المشذبة بعناية مستفهما، قال مرتبكا إنه قادم لزيارة مصطفى الجابر، فسأله الرجل الأنيق: وماذا تريد منه؟ أجاب مشيرا إلى الكتاب

في يده: لأعيد إليه الكتاب. قال: تستطيع أن تحتفظ به. ثم التفت إلى الرجل لينهي محادثته معه، قال حسن وقد رفع صوته ليستعيد انتباه الرجل: لكني أريد أن أتحدث إليه. قال هذا بصوت مهزوم هذه المرة: مات مصطفى قبل أسبوع.

- كيف . . . مات؟ لكنه لم يكن مريضا.

- لم يكن مريضا، مات بالسكتة القلبية.

نظر حسن التمار عبر باب المنزل الذي كان لا يزال مفتوحا على مصراعيه، كان المنزل قد أخلي من أثاثه. وأدرك أن الرجل الأنيق ذا اللحية القصيرة المشذبة بعناية لا بد أن يكون الفرنسي، الإبن الذي عاد ليدفن أباه، ويصفي تركته. إنصرف الفرنسي عنه ومضى مع الرجل إلى الشريط الاسمنتي الذي يحيط بالمنزل، فقطع حسن الممر عائدا، حين بلغ البوابة سمع اصطفاق باب حجرة السائق، ثم صوت المحرك، وقف يراقب الشاحنة، عكست مرآة السيارة الضوء فأعشت بصره، أغمض عينيه، وحين فتحهما كانت الشاحنة تتحرك ثم تبتعد، تحمل الكتب التي قرأها وأعادها إلى مصطفى الجابر وتلك التي لم يقرأها بعد، تذهب بها إلى مكان يجهله. لم يعد له ما يفعله أمام داره فعاد إلى البيت وهو يشعر أنه هزم هذه المرة. كان حزينا، ليس لأنه لم يعد له سبيل إلى كتاب البيان والتبيين الذي كان ينوي استعارته، ولكن لأنه فقد صديقا. كان يتحدث إليه كما يتحدث إلى صديق بلهجة تختلف عن لهجة أبيه الآمرة ولهجة المعلمين المتعالية.

عاد إلى البيت وهو يحتضن «مغني اللبيب» ككنز ثمين. فكر

في مصطفى الجابر الذي باغته الموت، لو كان قد مرض لاستطاع على الأقل أن يفكر في فترة مرضه في مصير مقتنياته، في مآل مكتبته العامرة. استعاد صوته يقول له قبل اسبوعين «حين تنتهي من قراءة الكتاب عد به وخذ كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ إنه كتاب قيم.» ربما يكون الكتاب الآن تحت كومة الأشياء التي حملتها الشاحنة. ربما ستنتهي إلى أحد المزادات العلنية. بدا الفرنسي في عجلة من أمره. إنه يريد أن يصفي الأشياء فليس لديه متسع من الوقت للاهتمام بكل صغيرة وكبيرة. إنه لا يحتاج إلى مقتنيات والده. لديه مقتنياته الخاصة به ورفوف كتبه. سيعود إلى عائلته في ليون.

في ذلك المساء جلس يعيد قراءة فقرات في مغني اللبيب، وأدرك أن مصطفى الجابر قد قاده إلى طريق عليه أن يقطعه الآن وحيدا.

* * *

لن يكون لديه الكثير من الوقت، سيخرج بعد ساعة من المنزل وقد لا يعود إليه أبدا. رفع الكتب عن الرفوف، كدس بعضها على منضدة الكتابة وما تبقى منها على الأرض، مسح الغبار عن الرفوف ثم شرع ينفض الغبار عن الكتب واحدا واحدا ثم يعيدها إلى مكانها. حرص أن يضع كتب المؤلف الواحد إلى جانب بعضها. وحين رفع كتاب «الأيام» ونفض عنه الغبار انتابته رغبة في إعادة قراءته. لا يتذكر ما إذا كان قد أتم قراءته في المرة

الأولى فعلا، لكنه يتذكر أنه تعرف على طه حسين في كتاب المطالعة المدرسية، وأحب المقطع الذي «يأخذ فيه الصبي اللقمة بكلتا يديه فيغرق أخوته في الضحك وتجهش أمه بالبكاء ويقول أبوه بصوت حزين: ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بني». وضع الكتاب على الأريكة وتابع رص الكتب على الرف. حين انتهى عاد إلى «الأيام» وشرع بتصفح الكتاب. كان قد استغرق في القراءة حين سمع رنين جرس الباب فجفل، انتفض من مكانه وصاح بصوت يقترب من الصراخ: من؟

قتيبة وهشام، جاءه الصوت بعيدا ومضطربا ثم سمع ضحكة مدوية، أزاح الستارة بالقدر الذي يسمح له بالرؤية، فرآهما، صديقيه المرحين. خرج إليهما ففاجآه بترنيمة أدياها بصوت واحد: لدينا اليوم ما نحتفل به.

أوضح هشام: وصلتني نسخة من الكتاب. جئنا لنحتفل بهذه المناسبة. حين كان الثلاثة في الصالة، أخرج كتاب «الساعة الخامسة والعشرون» ووضعه على الطاولة. كانت ثمة نسخ قليلة من الكتاب الذي كان مثل كتب أخرى ممنوعة، تتسرب من بيروت فيتداولها المثقفون. اعتذر حسن التمار: أنا آسف ليس لدي ما أقدمه لكما، قال هشام: جئنا معنا بما هو ضروري. فتح الكيس الورقي الذي كان قد وضعه على الأرض إلى جانبه وأخرج زجاجة عرق اشتراها في طريق عودته من العمل.

«أرني الكتاب»، قال حسن التمار وهو يضع الأقداح الثلاثة التي أتى بها من المطبخ على المنضدة. ثم تناول الكتاب وألقى

نظرة فاحصة على غلافه، فتحه على الصفحة الأولى ثم أعاده إلى مكانه على الطاولة.

خرجوا بعد أن أفرغوا نصف الزجاجة التي جاء بها هشام وقتيبة معهما ليتابعوا احتفالهم في المقهى. سيجدون هناك بالتأكيد بعض الأصدقاء.

شعر حسن بالاطمئنان. لن يحدث له شيء وهو برفقتهما. صار منذ الآن يدعو واحدا أو أكثر من أصدقائه ليشاركوه قدحا من الشاي في بيته قبل أن يذهب معهم إلى المقهى أو إلى مكتبتهم الأثيرة في الباب الشرقي، ليلقوا نظرة على ما وصل من كتب جديدة، وعمد إلى تغيير مواعيد خروجه من البيت في الصباح. تخلى مرة واحدة عن النظام الذي دأب عليه سنوات طويلة، الخروج من البيت في العاشرة بعد أن يكون قد سجل ملاحظاته عن الموضوع الذي سيُتِم كتابته في مكتب الجريدة. وبحث في هذا الكتاب أو ذاك عن مقولة يقدم بها لمقاله أو يختتمه بها لدعم رأيه. كان يحب تلك المقولات ويعمد إلى وضع خط تحت هذه الجملة أو تلك لدى قراءة كتاب ما. ستصبح هذه الجمل فيما بعد المستودع الذي يجد فيه ما يجعل مقاله مؤثرا، لم يكن هو وحده من يعمد إلى هذه الأسانيد، فهو واحد من جيل من الكُتّاب وجد في بيت كافافي: «إذا أنت خربت حياتك في هذا الركن من العالم فإنها خراب أينما حللت» عزاء كلما ضاقت به السبل. كانت هذه المقولات تردد في المقاهي

الثقافية وتفتتح أو تختتم بها المقالات المطولة التي يكتبها الصحفيون الأدباء أو محبو الأدب فتكتسب مهابة وقوة تجعلها غير قابلة للدحض. سيعود حسن التمار ذات يوم إلى كتاب «الحقيقة ولدت في المنفى» يبحث عن الجملة التي وضع تحتها خطا: «أنا الشاعر، ولست سوى الامبراطور.» ليتوج بها مقالة عن العلاقة بين المثقف والسياسي، وهو موضوع صار يطرح للمناقشة منذ أن تذكر بعض الشعراء أغراض الشعر التي عرفها الأسلاف فدأبوا يكتبون على نحوها قصائد في المديح تأتيهم بما يعزز دخولهم المتواضعة. في السنوات الأولى كان يحتفظ بدفتر ملاحظات صغير يسجل فيه هذه العبارات إلا أن ذلك ثقل عليه فكف في وقت ما عن التسجيل واكتفى برسم خط تحت الجملة ووضع قصاصة ورق بين الصفحات أحيانا لتسهِّل عليه العثور عليها. وفيما عدا هذا كان يستطيع أن يثق بذاكرته. كانت هذه المقولات الدليل الذي يجد فيه ما يدعمه ويقويه في كل أوضاع الحياة، حين يشعر بالسأم، حين يتعذر عليه حل معضلة ما، وحين يختلف مع أحد أصحابه. تحولت حياته إلى نظام من المقولات يعكس تطوره الفكري وأحواله العاطفية وعطشه إلى المعرفة. إذا كان آدم قد ارتكب معصية حين تذوق التفاحة من شجرة المعرفة، فقد ورث عنه هو أيضا هذه الخطيئة، سلك سبلا أخرى إلى المعرفة، لم يطمح بالفردوس وإنما بحياة أرضية متواضعة، لكنه وجد نفسه في منطقة متاخمة للجحيم.

* * *

ظهر الرجل الغريب في المقهى من جديد. كان يأتي بين السابعة والثامنة، يتخذ مكانا قريبا من مائدتنا، ولولا انشغاله بتسمع ما يقال وهو ما كان يمكن ملاحظته من جلسته وقراءته في تعابير وجهه حين لا يكون قد أدار لنا ظهره إمعانا في التنكر لظن المرء أنه شخص مسكين يعاني من الوحدة والضجر.

في ذلك المساء كنا أكثر مرحا، مازحنا بعضنا بنزق وروينا ما استطعنا تذكره من نوادر ارتفعت معها أصواتنا بضحك لم ينقطع إلا ليبدأ من جديد، حتى بدا لنا أن الرجل الغريب لم يجد في ذلك المساء ما كان يبتغيه لكتابة تقريره أو ربما وجد ما يحتاجه ويزيد عليه فلم يمكث طويلا، وتابعنا جلستنا بعد ذلك دون تحفظ أو حذر.

قبل منتصف الليل بقليل بدأ الأصدقاء يغادرون المقهى واحدا بعد الآخر وحل الهدوء حين لم يبقَ سوانا، أنا ومالك القسري وحسن التمار. كنا صامتين نستمتع بالسكون حين مر قارب بخاري في دجلة ودفع أمامه نسمة منعشة، سأل حسن: هل تدرون متى جلست في قارب آخر مرة؟ ثم تابع دون أن ينتظر جوابا: قبل خمس سنوات. إلتفت إلى مالك وقال: هل تتذكر تلك الرحلة؟ يتذكرها مالك بالطبع، يتذكر أنهما شاركا في رحلة نظمها معهد مسائي لتعليم اللغات الأجنبية، أنهما هبطا في الجزيرة التي اعتقد يومها أنها خاضعة لقانون حماية البيئة، قبل أن يكتشف فيما بعد أن ليس ثمة قانون كهذا. انتشر الطلبة في منطقة قريبة من الساحل وتوغل بعضهم بين الأدغال، فعل هذا هو أيضا

بصحبة حسن وطالب آخر، تقدموا بحذر شديد وهم يشقون طريقهم بين الأحراش محاولين التعرف على نباتاتها، حريصين على ألا يبتعدوا عن المجموعة وأن ينتبهوا إلى الطريق الذي سلكوه لتسهل عليهم العودة. لم تكن قد مرت ساعة حين سمعوا ضجة، وارتفعت في مكان ما من الجزيرة ألسنة اللهب. تبعوا النداء يدعوهم للعودة إلى السفينة حالا. حين كان الجميع قد غادر الجزيرة وابتعدت بهم السفينة عن الساحل كانت النيران تلتهم كل ما في طريقها وتتقدم بسرعة هائلة. رأوا قوارب الشرطة النهرية تصل إلى المكان، وحين وصلوا مرسى السفينة على شاطئ أبي نؤاس طُلِب منهم عدم مغادرتها. حضرت لجنة للتحقيق، وجرى الاستماع لشهود الحادث. كان أحد أعضاء اللجنة يخرج من القمرة يلقي نظرة على وجوه الجالسين ثم يختار واحدا لسماع شهادته. عند انتهاء التحقيق سمح للجميع بمغادرة ظهر السفينة عدا الشهود الأربعة الذين اعتبروا متهمين وكان عليهم أن يقدموا كفالة قبل أن يسمح لهم بالعودة إلى منازلهم. وشعر بالسعادة من لم تقع نظرة رجل التحقيقات عليه.

* * *

كاد رضوان ينتهي من تحرياته بشأن حسن التمار. ظن أنه يعرف الآن الساعة التي يذهب فيها إلى عمله، والساعة التي يعود فيها في المساء. الأصدقاء الذين يخرج معهم، المقهى الذي يتردد إليه، الأيام التي يذهب فيها إلى المقهى غالبا، وأن هذا

يكفي لاتمام مهمته. فكر في الطريقة الملائمة لإنجاز عمله، عند منتصف الليل، حين تكون الشوارع قد خلت من السابلة والدكاكين مغلقة. لكنه ما لبث أن تبين أن حسن التمار لم يعد يغادر المنزل في نفس الساعة، ولا يعود إلى المنزل وحيدا، وأن عليه أن يبدأ بتحرياته من جديد.

انحدر في الشارع الذي كان خاليا في هذه اللحظة ولاحظ أن ظله قد تقلص فبدا مثل بقعة ماء منسكب تحت قدميه. ستصبح الشمس عمودية عما قليل وستغدو الحرارة أشد وطأة، لذلك قرر أن ينهي عمله الاستطلاعي هذا اليوم. في اللحظة التي جلس أمام مقود سيارته خطرت له فكرة جديدة، فتوقف أمام أول بائع صحف مر به، إشترى جريدة المساء وألقى نظرة على الصفحة الأولى بحثا عن رقم تلفون مكتبها، شعر بالخيبة لأنه لم يجد الرقم، ثم عثر عليه وهو يقلب الصفحات دون رغبة حقيقية في القراءة في إحدى الصفحات الداخلية. توجه إلى محل قريب لبيع الملابس الجاهزة، وسأل البائع إن كان يستطيع أن يستخدم هاتفه. طلب رقم الجريدة وسأل إن كان يستطيع أن يكلم حسن التمار. قال الصوت على الطرف الآخر: لا أظنه موجودا، لم أره هذا الصباح. إنتظر سأسأل عنه في القسم. إنتظر لحظات ثم سمع الصوت يخاطبه من جديد. إنه غير موجود، أظنه في مهمة صحفية خارج بغداد. هل تريد أن أبلغه شيئا عند عودته؟ أجاب رضوان: شكرا. سأعود للاتصال به بعد يومين.

وفرت هذه المحادثة على رضوان الانتظار غير المجدي،

فقرر أن يؤجل تحرياته بقية الأسبوع ويتابع عمله كسائق سيارة اجرة.

* * *

حين دخل حسن التمار المكتب كان نقاش محتدم يدور بين المحررين. كانت رجاء تجلس وراء مكتبها وكان اثنان من محرري قسم الأخبار المحلية يقفان مسندين ظهرهما إلى المنضدة المقابلة. بادرته حين دخل: أنت أيضا ترى أنها مقالة جريئة، أليست؟ رفعت مجلة «آخر المطاف» من على المنضدة وقرأت بصوت عال. «يفتتحون رسائلهم إليَّ بـ سيدتي الفاضلة، هؤلاء الرفاق الذين شاطرتهم قراءة كتاب ممتع والإعجاب بجملة أو مقطع من قصيدة. يتجنبون ذكر الاسم وكأنهم يتجنبون كشف سر كتموه عقودا من الزمن. خدعوا أنفسهم، حملوا قلقهم في ليالي وحدتهم الأليمة أو في أماسي الصيف وهم يعودون مخمورين إلى منازلهم، أو اولئك الذين غضوا أبصارهم لإخفاء نظرة إعجاب كانوا قد حرصوا ألا تفضحهم. يتجنبون الإسم المحرق لأنهم يشعرون الآن أنهم قد أصبحوا أعلى قدرا ولا يليق بهم الإعجاب بامرأة. يعتقدون أن ذكر الاسم سيفضحهم، يذكرهم بأنهم كانوا قد كتبوا ذات يوم رسائل إعجاب لا يريدون أن يتذكروها الآن، يكتبون الآن سيدتي الفاضلة، ربما وجدوا هذا هو الخطاب الأنسب لامرأة أنجبت أربعة أطفال أصبحوا جميعهم رجالا. وضعوا أنفسهم الآن في موضع ..... توقفت عن القراءة من

غير أن تتم الجملة، وقالت: أحب هذه المرأة، كانت تستطيع دائما أن تقول ما لا يجرؤ غيرها على قوله أو حتى الهمس به. لعلها نسيت هنا أنهم لا يختلفون عن الذئاب، لكل منطقته المحددة التي أحرزها بتفوقه، ولا يريد أحدهم أن ينازعه عليها. وكانوا قد نسوا أنها كانت دائما منطقة منيعة وعصية عليهم. ثم رفعت رأسها إليه: ما رأيك؟ هل قرأت المقابلة؟ لم يكن قد قرأها لكنه عرف من الصورة التي تحتل نصف الصفحة أن الحديث يدور حول شاعرة من جيل المؤسسين. لم تنتظر طويلا، مدت يدها بالمجلة إليه: يمكنك أن تأخذها لتقرأها. لم يكن يتوقع هذا العرض السخي فأخذ المجلة دون تردد: سأعيدها إليك بعد قراءتها. أجابت بنفس المرح السابق: لست في عجلة.

غادر زميلاه الغرفة فتبعهما والتفت حين بلغ الباب إلى رجاء ملوحا بالمجلة: شكرا.

أصبح لرجاء الآن صوت. كانت قد التحقت للعمل في قسم الأخبار في الجريدة قبل أقل من سنة، ولم تُبدِ فضولا إزاء ما كان يجري في الأقسام الأخرى. كانت حين يصادفها في كل الشهور السابقة تحييه أو ترد على تحيته بايماءة خفيفة من رأسها وربما تحركت شفتاها بكلمة أو اثنتين قالتهما همسا فلم يسمعهما.

لم يكن قد تبادل الحديث معها منذ التحاقها بالعمل في الجريدة، كان يراها تقطع الممر الطويل إلى قسم الأخبار قادمة أو ذاهبة، بخطوات ثابتة وسحنة صارمة، تحيي من يصادفها بتحية

مقتضبة أو مجرد ايماءة. وها هي الآن تتعامل معه دون تحفظ وكأنه صديق قديم. وانتبه إلى أنها كانت ترتدي ثوبا قصير الأكمام بلون غابة داكنة الخضرة، وأن لون ثوبها ينعكس على عينيها فيتغير لونهما، تفاصيل لم تكن قد أثارت اهتمامه من قبل.

قرأ حسن المقابلة في مجلة «آخر المطاف» بانتباه شديد وكأنه تلميذ يحفظ درسا، وفكر مليا فيما يمكن أن يقوله لو سئل بشأنها. أنعشته فكرة أن تتاح له فرصة ثانية للحديث مع رجاء.

حين قصد مكتبها لإعادة المجلة كانت قد غادرت. وإذن سيحتفظ بها حتى الغد. وضع المجلة في حقيبته.

أعطاه هذا فرصة لقراءة متأنية لبعض أعمال الشاعرة التي لم تكن قد أثارت حماسته من قبل، حين عاد إلى المنزل بحث على رفوف مكتبته عن مادة تتعلق بها فعثر على ديوان شعر قديم لها ومجلة نشرت عددا من قصائدها. قرأها باهتمام وهو يدرك أنه لن يجد فيها متعة كبيرة لكنه سيكون قادرا على الحديث والمناقشة إذا سنحت له الفرصة. وشعر أنه يستطيع الآن أن يبدي بشأنها رأيا ويدافع عنه.

حين عاد بالمجلة في اليوم الثاني لم تسأله رجاء عن رأيه في المقابلة وإنما عما إذا كان قد كتب شيئا جديدا. فاجأه السؤال، ورغم أنه شعر بشيء من الخيبة لأنه لن يستطيع أن يعرض معرفته بالشعر والشاعرة إلا أنه اعتبره إشارة لنوع من الاهتمام لم يكن يتوقعه. محا السؤال كل ما كان قد أعده في ذهنه عن الشاعرة، وحاول أن يجد في الحال جوابا يقوده إلى حديث مستفيض. قال

إنه يعد لإصدار ديوانه الأول. وإنه يكتب بكثرة لكنه حين يعود إلى ما كتب في اليوم التالي لا يشعر بالرضا عنه غالبا، وكثيرا ما يمزق ما كتب. قال إنه يشعر أحيانا بأنه بحاجة إلى أن يترك الحكم على عمله لشخص آخر يستطيع أن يقيمه بحياد. أدركت رجاء الإشارة فقالت: لا أصلح للنقد وإلا لعرضت عليك أن أكون هذا الشخص.

«لم أقصد أنني بحاجة إلى ناقد، فأنا لا أثق كثيرا بالنقاد، وإنما بالقارئ الجيد. لأن ما يهمني حين أنشر مادة أن تصل إلى القارئ.»

«في هذه الحالة يمكنك أن تعتمد علي.»

«هذا يعني أنني أستطيع أن آتيك ببعض النصوص.»

في هذه اللحظة شعر أنها لم تعد بعيدة تماما مثلما كانت من قبل. لكنه حين غادر مكتبها تذكر حديثها عن الذئاب، عن الأقوى الذي يرسم حدود منطقته وعن الذئاب الأخرى الأضعف التي تحترم هذه الحدود، وتساءل إن كانت سترى فيه ذئبا يدخل منطقة غير مستولى عليها، ويحاول أن يرسم حدود هذه المنطقة. لكنه تراجع وهمس لنفسه: لكني لست ذئبا.

حين كان يقطع الممر إلى الباب الخارجي صادف رجاء مرة أخرى فبادرته: إنك ذاهب كما أرى، يا لك من سعيد، أما أنا فسأحتاج إلى ساعتين أخريين على الأقل لأتم عملي.

رد على ملاحظة رجاء دون أن يفكر طويلا: هل أستطيع مساعدتك؟ قالت: «كلا لم أقصد هذا.»

كان عليه هذا اليوم أن يقرأ ثلاثة تقارير كتبها محررون شبان ألحقوا بالعمل حديثا. لا يعرف كيف جرى اختيارهم، لكنه يعرف أن ثمة رغبة لدى جهة عليا بتغيير تدريجي لطاقم الجريدة.

قرأ التقرير الأول عن معمل للنسيج، عن عامل مصاب بتتريب الرئة، كان عليه أن يجلس في قاعة الإنتاج أربعة أسابيع رغم مرضه المتأتي من ظروف العمل، ذلك لأن هذه الأسابيع تنقصه ليستحق راتبا تقاعديا. أقحم المحرر الشاب عبارة «تركة العهد البائد» في مقدمة مقاله، نسب إلى ذلك العهد تبعة ما رآه. لقد باد أكثر من عهد، لكن العهد البائد ظل يعني ما قبل قيام الجمهورية. أراد المحرر الشاب أن يتجنب الخوض في تفاصيل قد تسبب له المتاعب ويبرئ نفسه من تهمة عدم الولاء للحكومة، أن ينجو بجلده.

وأعاد التقرير الثاني إلى المحرر مع بعض الملاحظات ليعيد كتابته على ضوئها وأجرى بعض التصحيحات على التقرير الثالث. وفيما عدا هذا كان عليه أن يهتم بمغلف كبير وجده حين وصل إلى مكتبه فوق الأوراق التي كان قد تركها في اليوم السابق. لم يكد يرفع المغلف حتى قال له نوري الفراش الذي كان قد تبعه ووقف بالباب: جاء بها شخص قبل نصف ساعة. كان نوري على استعداد دائما ليجيب عن الأسئلة قبل ان توجه إليه، يسرع لإحضار الشاي لحسن حال وصوله وقبل أن يطلبه منه، يفعل ذلك أيضا حين يصل إلى المكتب ضيف يقول له إنه على موعد مع حسن التمار أو رئيس التحرير أو أحد رؤساء

الأقسام ولم يكن هؤلاء قد حضروا. كان يدعوه للجلوس والانتظار ويقدم له الشاي وكان بذلك يؤكد ولاءه.

فتح حسن المغلف وأخرج رزمة الأوراق والصور التي كانت بداخله. لم تكن رسالة من قارئ يعقب على مادة كتبها، ولكنه موظف كبير لا علاقة له بالعمل الصحفي كتب تقريره مدفوعا بالغضب لأن شيئا كهذا يمكن أن يحدث في بلاد تمتلك من الثروة ما يكفي لرفاهية مواطنيها جميعا. قرأ التقرير وتأمل صور الأطفال الثلاثة، يجلس اثنان منهما متقابلين يلعبان بشيء ما، قطعة من خشب ربما، وثالث يحبو في ممر مبنى دورة مياه عامة. كتب الرجل تقريره مصعوقا بهذا الاكتشاف.

وضع حسن التقرير أمام رئيس التحرير الذي ألقى نظرة عليه وقال له:

«سنرسل نحن محررا ومصورا ليكتب عن الموضوع».

* * *

مضى إلى المنزل وهو يشعر بخفة غريبة، تنقل بين الصالة وغرفة النوم وكأنه يبحث عن شيء لا يعرف ما هو، جلس إلى منضدة الكتابة وانتبه إلى أن يده لا تستطيع أن تعمل بسرعة تجاري سرعة تدفق أفكاره:

أريد أن اكتب قصيدة مبهجة

ليس فيها عصفور

يسقط من على غصنه ميتا

منزل يحترق
طفل ينتحب
أم تغني لطفلها أغنية كالنواح
أريد أن أكتب قصيدة
تنطلق فيها الكلمات كالفراشات
من شرنقة الصمت
التي اهترأت من طول الانتظار،
تمزقت
الآن،
وفي كل وقت

ملأ عدة صفحات كتبها دون توقف، وشعر بشيء يشبه السعادة.

* * *

دخل حسن التمار مقهى نجمة الصباح، توقف لحظة وهو يطوف ببصره في المكان ولما لم يجد رضوان في المقهى اختار مكانه إلى المائدة الأخيرة من موائد الصف الملاصق للجدار. سيكون من هذا المكان قادرا على مراقبة الذين يدخلون المقهى او يخرجون منه دون أن يفوته شيء. لن يحدث شيء من وراء ظهره. تدرب منذ أسابيع ألا يترك ظهره مكشوفا ما أمكن. أن يكون آخر من يدخل مكانا أو يغادره، أن يمشي أمام أصحابه حين

لا يتسع الطريق لهم ليمشوا في صف واحد، وأن يجلس في الصف الأخير في القاعة حين يحضر ندوة أو أمسية حيث يستطيع أن يراقب الجميع ولا يستطيع أحد مراقبته. وقد وجد هذا بعد وقت قصير مسليا. فهو يستطيع أن يرصد من مكانه من حضر ومن لم يحضر، كيف يختار القادمون مقاعدهم وجيرانهم، من يغادر القاعة قبل نهاية الندوة ومن يأتي متأخرا. تلتقط عيناه صورهم بقمصانهم البيضاء أو المقلمة، المدعوكة من طول الاستعمال أو المكوية حديثا، أشكال الرؤوس، رؤوسا بشعر مجعد كثيف، بصلعة مستديرة في وسط الرأس، بشعر مرسل يغطي الأذنين أو بشعر قصير يشبه الفرشاة. يقول في نفسه أن قصات الشعر، أن القمصان والسترات تقول شيئا عن أصحابها وأنه يستطيع من خلال مراقبة شخص من ظهره أن يعرف مع ذلك أين يضع هذا الرجل، ويميز بين المتزمت والمتسامح، بين المحافظ والمجدد. تكشف الوجوه عن تفاصيل كثيرة، لكن الظهور تكشف عن الملامح العامة، ولا تستطيع التضليل على الأقل.

جلس في المقهى قرابة ساعة. طلب خلالها شايا شربه دون رغبة. وتصفح جريدة يومية لم تكن تثير اهتمامه عادة. لم يشأ أن يسأل صاحب المقهى عن رضوان، ربما كان هذا لا يعرف جميع الرواد. لكنه يعرف رضوان بلا ريب، ربما كان يعرف عنه أيضا أكثر مما يمكن أن يقال. شعر بالسأم فغادر المقهى وفي نيته أن يكون أكثر حذرا.

* * *

حين دخل مكتب رجاء وهو يحمل بعضا من قصائده بدت أقل مرحا مما كانت بالأمس وهي تنهي حديثها مع زميل لها لترد على تحيته. قال معتذرا: ربما لا أكون قد اخترت الوقت المناسب. قالت: كلا، يبدو أنني أتعامل مع المشاكل العامة وكأنها مشكلتي الشخصية. تنفست بعمق ثم تابعت الحديث: أشعر بالكدر منذ الأمس. كنت أجلس أمام التلفزيون وهو ما أفعله نادرا، فرأيت تقريرا ملأني فزعا.

مستشفى فقير في مدينة قصية في آسيا، صالة تنتظم فيها أسرة من حديد، تجلس عليها نساء ضامرات، تقدمهن مديرة المستشفى واحدة بعد الأخرى، هذه في شهرها الخامس تحمل طفلا لعائلة في نيويورك، وهذه في شهرها الثالث، تحمل طفلا لعائلة أوروبية، وهذه لعائلة كندية. يأتي الأزواج مع الأطفال لزيارة الأمهات. لأغلب النساء أكثر من طفل. في غرفة المحادثة تقول الطبيبة إنهم في المستشفى لا يقدمون هذه الخدمة إلا في الحالات التي تتوفر فيها أسباب وجيهة تضطر الزوجين إلى اختيار هذا الحل. في مشهد آخر تتحدث الطبيبة إلى الزوجين، تشرح لهما أن المرأة قد تتعرض لصعوبات صحية، ربما أجريت لها عملية قيصرية، قد تحدث بعض المضاعفات التي تؤدي إلى الموت. ليس لكما الحق بالاحتفاظ بالطفل بعد الولادة. يوافق الزوجان. ويوضح الزوج أنه يحتاج المال لشراء منزل للعائلة، من أجل أطفالهما الأربعة.

لم تفلح وجبات الحليب واللحوم والخضار التي تقدم لهن

كل يوم في التغلب على نحولهن، تغطية عظامهن الناتئة. إنها حصة الجنين الذي سينمو في ارحامهن، ليست حصتهن. عشن في الجوع وسيمكثن فيه حتى وهن يتناولن قدح الحليب كل صباح وغذاء لم يتذوقنه من قبل، سيضعن مواليدهن ويعدن إلى حياتهن القديمة ولكن في منزل لا يطالبهن احد بمغادرته لأن العائلة تأخرت في دفع الايجار.

كدت أنفجر غضبا، وددت لو استطعت أن أحطم شيئا، أن أصرخ، أعرف أنهم يكذبون، جميلات السينما يفضلن أن تقوم هاته النساء عنهن بالحمل. الحمل والولادة خدمة يمكن أن يحصلن عليها لقاء ثمن، إنهن يملكن هذا الثمن. والضرورة التي تتحدث عنها مديرة المستشفى كذبة مفضوحة. أشعر بالألم من أجل هاته النساء. اشتعلت رجاء غضبا وهي تتحدث عن فساد العالم، وشعر أنها تزداد منه قربا.

* * *

لا يعرف حسن التمار متى حل الخوف محل الألم الكوني، أصبحت حياته منذ أن غير قراره جحيما لا يطاق. إنه منذ أسابيع لا يغادر المنزل وحيدا، وإذا أخفق في دعوة أحد أصدقائه لتناول الإفطار معه قبل الذهاب إلى المكتب أو لإطلاعه على كتب وصلت إلى يده مؤخرا، أو للحديث معه حول مشروع يمكن أن يقوما به معا، إذا أخفق في دعوة من يرافقه فإنه يطلب سيارة أجرة تنقله إلى حيث يريد. أصبحت تنقلاته محدودة، وأصبح

الأصدقاء يأتون إليه بدل أن يذهب للقائهم في ناد أو مقهى.

حين يكون وحيدا يتمثل صورته يسقط على وجهه وقد أصابته رصاصة في ظهره، في موضع القلب، يحاول أن يرفع رأسه لكن قوته تخذله فيسقط رأسه مرتطما باسفلت الشارع، أو سيارة تباغته وهو يعبر الشارع عند منتصف الليل فيسقط ميتا. يملؤه الأشفاق على نفسه ولا يستطيع أن يحبس دمعة تخضب وجهه.

* * *

في الحادية عشرة، قبل منتصف الليل بدأوا ينسلون الواحد بعد الآخر. نهض رياض وقال إنه يشعر بالتعب، وإن عليه أن ينهض في اليوم التالي باكرا، وتصبحون على خير، ثم غادرهم هشام لأنه كان ثملا، سأله قتيبة إن كان يحتاج إلى مرافقة فأجاب أنه يستطيع أن يصل إلى البيت دون عون. وحين لم يبق سوى ثلاثة، حسن التمار ومالك القسري والشاب الذي جاء برفقته وقدم نفسه «كامل». وكان صامتا أغلب الوقت. قرروا أن يغادروا بعد أن ينتهوا من تدخين سيجارة أخيرة. حين نهضوا بدا كامل مرتبكا، قال: حين وصلت بعد الظهر مررت بقريب لي في شارع الكفاح، لم يكن موجودا. آمل أن يكون الآن قد عاد، وألا يكون قد نام. وجد حسن التمار الفرصة مواتية: تستطيع أن تبيت عندي. لدي مكان كاف.

«حقا؟ هذا رائع!» قال كامل.

مضى الثلاثة حتى بلغوا تقاطع الطرق فغادرهم مالك في اتجاه الشرق ومضى حسن وكامل إلى المنزل.

المنزل الذي يسكنه حسن التمار مشتمل ذو أربع غرف، إثنتين منها في الطابق الأرضي فضلا عن الحمام والمطبخ الذي تطل نافدته على الحديقة.

حين إنتقل إليه كان المستأجر السابق قد غادره قبل أيام وترك أشياء صغيرة لا قيمة لها لكنها ستجعله يرسم صورة لحياة هذا الشخص الذي لم يره.

صورة لمغنية شابة مقتطعة من مجلة، نسيها مثبتة على الجدار بثلاثة دبابيس، لا بد أن الدبوس الرابع قد سقط من الزاوية السفلى اليسرى وترك ثقبا صغيرا وحسب، حذاء بيتي قديم قياس ٤٣، يبدو أنه أراد الاستغناء عنه ولم يجد الوقت للتخلص منه، أقلام جف حبرها فلم تعد صالحة للاستعمال، رسائل من مصادر مختلفة، تهيب حسن من إلقاء نظرة حتى على أسماء مرسليها لأنه اعتبر ذلك اقتحام حيز شخصي ليس له الحق في دخوله، وشق عليه إتلافها، فوضعها في علبة صغيرة حشرها في المخزن المظلم تحت السلم، قصاصات ورق صغيرة يبدو أنها قوائم للتبضع فاته أن يتخلص منها. وبنظرة خبيرة إلى ما كتب عليها عرف ميول الرجل الغذائية، فقد وجد على العديد منها الجبنة والفاكهة، ربما كان أيضا قد وجد في الحديقة شيئا من غذائه، فلم تكن الحديقة صغيرة تماما، كانت فيها شجرة نارنج

كبيرة وشجرتا ليمون وشجرة برتقال موزعة على الشريط الترابي المحيط بالنجيل. يقوم بستاني الجار الساكن في البيت الكبير، وهو المؤجر في نفس الوقت، بالعناية بها مقابل دينار في الشهر. وقد كانت الحديقة ملجأه في أماسي الصيف القائظة، حيث كان يضع منضدة الألمنيوم الصغيرة في وسطها ويجلس ليكتب رؤوس أقلام عن موضوعات تقارير سيكتبها خلال الأسبوع. يتألف الطابق الثاني من غرفتي نوم تتوسطهما فسحة السلم والباب المؤدي إلى السطح.

في الصباح حين انتهيا من تناول إفطارهما قال حسن: «تستطيع أن تبيت هنا فترة بقائك في بغداد. لدي غرفة خالية كما رأيت.» لم يكن كامل واثقا من أن قريبه سيرحب بضيافته، فوجد العرض فرصة لا ينبغي عليه إضاعتها. كان عليهما إذن أن يتفقا على بعض التفصيلات الصغيرة. قال حسن: «ليس لدي سوى مفتاح واحد للأسف.» تعال إلي في الساعة الثانية بعد الظهر إلى المكتب، أو انتظرني في الكافتيريا فذلك أفضل. سآتي إليك هناك حوالي الثانية.

بعد الظهر ذهب حسن برفقة كامل إلى السوق القريب، قاده إلى الدكان الثالث في السوق مباشرة من غير أن يلقي نظرة على ما تعرضه المحلات الأخرى. طلب ما يحتاجه، فحملا الأكياس، وحين ابتعدا بضعة أمتار عن الدكان سأل كامل: أما كان ينبغي أن نلقي نظرة على ما تعرضه الدكاكين الأخرى؟ فأجابه حسن بلهجة هي مزيج من تصنع الحكمة والسخرية: ستتعلم هنا

يا بني ما لا تجده في الكتب. وروى له أنه حين انتقل إلى منزله الحالي قال له المالك إنه سيجد ما يحتاجه في السوق في الشارع المحاذي، وهو لا يبعد عنه سوى دقائق. وإنه ذهب في اليوم الثاني إلى السوق، إلى هذا السوق واشترى ما يحتاجه من الخضار، اختار ما يحتاج من السلال والصناديق المصفوقة أمام الدكان، وحين تكررت زيارته لنفس الدكان ثلاث أو أربع مرات، استمهله البائع: «إنتظر، كم تريد؟»، ذهب إلى الصناديق في داخل الدكان وعاد بكيس ورقي وضعه في الميزان، ناوله لحسن وقبض ثمنه. إكتشف حسن وهو يخرج ثمرات الطماطم في المنزل أنها أفضل من تلك المعروضة في السلال أمام الدكان. وأن ثمة بضاعة يحتفظ بها البائعون لزبائنهم الأوفياء وأخرى لسائر الزبائن، وأدرك أنه قد أصبح من الزبائن الدائميين للمحل، وأنه لن يكون بحاجة إلى التجول في السوق بحثا عن بضاعة أفضل نوعا والمساومة من أجل الحصول على سعر أرخص، صار بعد ذلك يتوجه إلى دكان محمود، يطلب منه ما يريد وهو مطمئن إلى أنه سيحصل على الأفضل.

* * *

ذهب حسن التمار إلى مقهى نجمة الصباح في الأيام التالية أكثر من مرة، ثم ضاق ذرعا بهذا الانتظار الذي لا يستطيع أن يتحدث عنه لأحد.

وأدرك أنه لن يجد فرصة لتسوية الأمر، وأنه قد يلتقي

رضوان صدفة، في شارع ما، لقاء لن يسمح له حتى أن يتبادل معه كلمة واحدة، لقاء تكون فيه نهاية حياته. لم يعد أمامه إلا أن يبحث هو عن الأخير، ويقضي عليه قبل أن يُقضى عليه. إنتظر ذلك الصباح في المحطة التي تنطلق منها سيارات الأجرة إلى المدن الأخرى. ربما استطاع أن يجده هناك ويسوي الأمر معه. وحين لم يجده عاد إلى البيت. حاول أن يقوم بشيء مفيد، قرأ ما كان قد كتبه مساء اليوم السابق قبل أن ينام، كان قد سجل مفردات وحسب لتكون دليله على ما يريد كتابته. خذلان، ثم كلمة لم يستطع قراءتها، مفترق الطرق، المستحيل، لكن هذه الكلمات بدت له ملغزة، لم يجد فيها عونا. لم يعرف ما كان قد فكر فيه بالأمس، ولم تذكره السطور المتعاقبة التي كتبت تحتها بما كان قد فكر فيه بالأمس.

إمرأة تنظر من ثقب الباب

طفل يبكي

رجل يضحك من فرط السكر

لا يعرف إن كان هذا مقطعا من قصيدة أراد كتابتها، أم أنها انعكاس لمزاجه المضطرب وحسب.

وحيدا ومفرغا إلا من كآبة غامضة تناول كتابا كان قد بدأ بقراءته قبل يومين، فتحه حيث كان قد وضع الإشارة وشرع يقرأ، بعد ساعة اكتشف أنه لم يفهم شيئا مما قرأه، وأنه مشتت الذهن غير قادر على القيام بشيء مفيد فقرر أن ينام. نهض واقفا وقطع الغرفة جيئة وذهابا وقال بصوت مسموع: لا أريد أن أموت...

لا أريد. إنه يفعل ذلك كلما اتخذ قرارا، يشعر أن النطق به يمنحه وضوحا وصلابة، يجعله قرارا حاسما لا رجعة فيه. حين دخل السرير تقلب في فراشه، بين النوم واليقظة شريط الصور يدور في رأسه ثانية، ما كان قد نسيه أو ظن أنه نسيه، رأى نفسه صبيا يعبر دجلة مع أصدقائه، يستأجرون دراجة بما تبقى في جيوبهم ليطوفوا بها في أزقة بعيدة، يقطعون القصب ويقصون الورق يصنعون منهما طائراتهم الورقية. أو يقايضون كريات الزجاج الملونة بخذروف. حاول أن ينام فلم يفلح، ظل معلقا بين نوم تعذر عليه ويقظة ناقصة لا تسمح له بوضوح الرؤية وصفاء الذهن. يكره هذه الحالة كما يكره الألم. لكن الحال لم يكن هكذا دائما. أيكون لهذا علاقة بالوعي؟ هذا ما يريد أن يعرفه. يتذكر أنه كان لا يتهيب من سلخ ثؤللة نمت على ظهر كفه بموس الحلاقة. ربما لم يكن يشعر بالألم يومذاك. لكنه اليوم لا يطيق منظر خدش صغير، قطرة دم.

يخاف الألم، ليس الموت. لكن الطريق إلى الموت يمر بمنطقة الألم. يحاول أن يفهم. أن يعرف عن الألم ما يمكن أن يحرره من الخوف منه.

يتذكر أن أمه روت له أنها انتبهت إلى أنه قد جرح إصبعه وهو يلعب بسيارة من الصفيح، وأن الدم قد لطخ ثيابه، لكنه كان مستغرقا في اللعب. لم يكن قد بلغ الثانية، هرعت إليه مذعورة غسلت الدم عن يديه وضمدت جرحه. لم يبك. بعد ذلك بشهور سمعته يصرخ مذعورا فهرعت إليه، لم يكن قد تعلم الكلام بعد،

أشار إلى ساقه فرأت صبغة حمراء ربما كان منشؤها أوراقا ملونة كان يلعب بها، مسحت الصبغة عن ساقه وابتسمت له. لقد ظنها دما. لم تكن مؤلمة بالتأكيد، هل سبب له الاعتقاد بأنه قد جرح ألما؟ هل الألم مجرد وهم؟ يعرف الآن أن الألم ليس مرضا وإنما هو إشارة إلى أن ثمة ما لا يعمل في الجسد، إلى أن شيئا ما ليس على ما يرام. لهذا لم يكن يلجأ إلى الأدوية المسكنة حين يشكو من ألم ما، حتى حين كان الطبيب ينصحه بها، لأنه كان يعتقد أنها ستخدعه.

يبحث في القاموس الطبي عن معرفة أعمق، يقرأ عن الألم السطحي والألم العميق، عن أوصاف الألم حارقا أو واخزا أو ضاغطا، وعن نشوئه، يقرأ مفردات مثل الهيستامين والسيروتونين، ولا يفهم منها الكثير. ويقرأ إنه إشارة تحذير توقظ قوى المقاومة في الجسم، إشارة وحسب، إنذار بالخطر، هذا ما كان يعرفه من قبل. حلم دائما بحياة بلا ألم، لكنه عاد فغير رأيه حين قرأ عن حالة نادرة لطفل قدرته على الشعور بالألم معطلة، هتف في البدء بحماس: هذا شيء رائع. لكنه حين تابع القراءة وعرف أن على الأم أن تراقبه طول الوقت كي لا يلحق بنفسه أذى. قد يجرح إصبعه أو يسقط فتكسر له ساق أو يتعرض لحروق خطيرة دون أن يشعر بالألم. على هذا النحو فإن حياته مهددة على الدوام، أدرك أن الألم ضروري للحياة.

* * *

حين عاد رضوان إلى المنزل وجد أخاه الأصغر يجلس على الدرجات إلى يمين باب شقته. «ماذا جاء بك؟» هتف وقد انتزعته المفاجأة من أفكاره وأربكته. لم يجب أخوه عن السؤال وبدلا من ذلك نهض واقفا وسأله: كيف الحال؟ بقي السؤالان معلقين حتى فتح رضوان الباب ودخلا الشقة. سأل أخاه: متى وصلت؟

«قبل أكثر من ساعة.»

«وانتظرت هنا بالباب كل هذا الوقت؟»

«كلا، خرجت إذ لم أجدك في المنزل وطفت بالمنطقة، تناولت وجبة خفيفة من أحد المحلات الصغيرة واقفا، ثم عدت إلى هنا. سألتني ما الذي أتى بي. أمي مريضة جدا. قالت إنها تريد أن تراك قبل أن تموت.»

سأل رضوان عما تشكو، سأل عن أخوته الآخرين، عن الصغيرة، إبنة أخته التي لا يتذكر أنه ذكرها باسمها، سماها دائما الصغيرة. «لكنها لم تعد صغيرة»، علق أخوه. «إنها بخير وقد دخلت المدرسة».

«لا بد أنك متعب، هل تريد أن تنام قليلا.»

«كلا، لكني أريد أن أغسل وجهي.»

دخل أخوه الحمام بينما شعر رضوان لحظة بالتخفف، يستطيع الآن أن يفكر دون رقيب، ولكن فيم يفكر؟ قرر أن يسافر في المساء برفقة أخيه إلى الناصرية. تمنى ألا يكون مرض أمه مرض موت فعلا. يتذكر شيئا مماثلا حصل لصديق له. استدعته أمه لأنها ظنت أنها تحتضر. لكنها عاشت بعد تلك الحادثة

عشرين سنة. دخل المطبخ وأعد الشاي، أحضر قدحين وسأل أخاه حين خرج من الحمام إن كان يريد أن يأكل شيئا، كان جواب هذا بالنفي فأحضر الشاي. في الساعات التي أمضياها معا قبل أن ينطلقا في طريقهما إلى الناصرية، غسل رضوان القدحين، وقام بترتيب الشقة ترتيبا سريعا. واستمع إلى حديث أخيه عن عمله كموظف في الشركة العامة لبيع الأجهزة المنزلية، قال له إنه يستطيع أن يزوده بما يحتاج، فغالبا ما تكون الكمية المستوردة صغيرة ويصعب الحصول على البضاعة إذا لم يصل المرء ساعة طرحها في الأسواق. قال إنه اشترى لصديقه ثلاجة ماركة ويستنغهاوز، وهي ماركة يصعب الحصول عليها هذه الأيام، واشترى لصديق آخر مسجلا صغيرا ماركة فيليبس. أثنى على المنتَج وأسهب في وصف الحقيبة الجلدية التي يُحمَل فيها الجهاز. قبل أن يغادرا المنزل أعد رضوان دون أن يسأل أخاه هذه المرة وجبة سريعة من البيض والمخللات، تناولاها في صمت. نهض رضوان بعدها وتناول حقيبة سفر صغيرة من فوق خزانة الملابس، وضع فيها منامة وقميصين وبعض الملابس الداخلية. ثم قال لأخيه: نستطيع أن نذهب الآن. في الطريق تحدث أخوه عن مرض أمه، قال إنها مرضت في العام الماضي، ورأى الطبيب أن تجرى لها عملية جراحية فنقلوها إلى المستشفى، لكن الأطباء هناك لم يروا ضرورة للعملية فعولجت بالأدوية، وتمتعت بصحة جيدة بعد ذلك. لكنها مرضت الآن منذ أسبوعين، يبدو أن حالتها تزداد سوءا. قالت إنها تستطيع الآن أن

تمضي دون خوف بعد أن كبر أولادها وأصبحوا قادرين على تدبر أمرهم. إشترى مهند قطعة أرض زراعية، يريد أن يحولها إلى مزرعة للخضار، إنها غير بعيدة عن المدينة. يستطيع المرء أن يصلها مستخدما المواصلات العامة. سيتزوج مراد في الربيع القادم، جمع خلال سنوات عمله ثروة صغيرة. جارنا القديم جميل الصراف مات في العام الماضي. باع أولاده البيت، تسكنه الآن عائلة محسن المصباح، لا تختلط العائلة بالجيران كثيرا، ولا يعرف أحد عنها شيئا سوى أنها كانت تقيم قبل ذلك في منزل صغير في شارع البلدية. إلا أن حديقة البيت أصبحت أكثر ازدهارا منذ أن انتقلت العائلة إلى البيت. زرعوا نباتات متسلقة ارتفعت فوق الجدار وامتدت إلى الشارع.

لم يكن رضوان يصغي تماما، لم يشعر أن ما يرويه أخوه يهمه في قليل أو كثير وكان يهز رأسه بين حين وآخر، لكن هذه الإشارة التي بدت لأخيه استجابة، كانت تناغما مع ما يدور في رأسه. في تلك اللحظة تذكر أباه وهو يلعن ويقول غاضبا: لست أنا من خلقهم. فتغمغم أمه بكلمات غامضة ثم تقول: أيها الزنديق، سيكون مصيرك في جهنم. ويرى أباه يمضي مطأطئ الرأس إلى الغرفة الأخرى وهو يتمتم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أستغفرك يا ربي على ما بدر مني. ثم يجلس مهزوما أمام كومة من جريد النخيل سيتحول حتى المساء إلى قفص للطيور أو سلة أوسرير لرضيع.

شعر بشيء من الانقباض وهو يدخل الزقاق الذي يعرفه

جيدا. رأى طفلا لم يتجاوز السادسة يجلس على الأرض يدفع بيده شيئا لم يتبين شكله، ويقلد صوت سيارة في انطلاقها، نهض حين سمع منبه السيارة، ابتعد ووقف مستندا بظهره إلى الجدار، ظل يراقب من مكانه السيارة وهي تتوقف ويهبط منها الرجلان. حين كان رضوان يهم بإغلاق بابها التقت نظرته بنظرة الصبي الذي لم يحول بصره عنهما، رأى في الطفل صورته وهو صبي في السادسة، لكنه بدلا من أن يشعر بالحنين ازداد شعوره بالانقباض.

حين دخل الدار أدرك أن شيئا لم يتغير منذ زارها آخر مرة. الفناء بأرضيته الاسمنتية، والتنور الذي لم توقد فيه نار منذ زمن طويل لا يزال في مكانه. شجيرة العنب المزروعة في الحاشية الترابية للساحة وحدها كبرت وغطت جانبا كبيرا من الجدار. توجه مباشرة إلى الغرفة التي يعرفها جيدا، يتبعه أخوه. فتحت أمه عينيها وقالت: ها أنت قد وصلت. تقدم منها وجلس إلى جانب سريرها. أمسك بيدها، لكنها أغمضت عينيها ولم تسمع سؤاله عن صحتها.

شعر بالذعر، باغته الأمر، كان يريد أن يتحدث إليها، ربما شعر للمرة الأولى بالرغبة في أن يقول لها شيئا، أن ينزع رداء الرجولة الذي لبسه بعد وفاة أبيه ويعود طفلا، لكنه وصل متأخرا.

سيكون عليه الآن أن يهتم بشؤون الدفن، ويقيم المأتم، يستقبل المعزين، ويشد من أزر أخوته.

* * *

سقط المطر في هذا الصباح من حزيران سخيا، لا يتذكر حسن التمار أنه شهد المطر يسقط في حزيران. شعر بالسعادة وهو يقطع الطريق إلى مكتب الجريدة بقميص مبتل، كان الشارع خاليا، المارة الذين فاجأهم المطر انسحبوا إلى مداخل المحلات التجارية والمقاهي ومخابئ أخرى غير منظورة. رفع وجهه إلى السماء وترك قطرات المطر تغسله ثم تنحدر على عنقه وتبلل صدره وقميصه.

حين وصل باب المعظم كان المطر لا يزال ينهمر مثل شلال، ورغم ارتفاع درجة الحرارة لم يشأ أحد أن يمضي إلى هدفه مبتلا. حين دخل المبنى صادف زميلا له في الممر الطويل إلى مكتبه هتف مقهقها: إنك مبتل تماما. كان بإمكانك أن تنتظر في مدخل مبنى أو دكان حتى يتوقف المطر. إبتسم وقال: «الطقس حار، ستجف ملابسي بعد دقائق.» لم يشأ أن يشرح لزميله أنه شعر بالغبطة وهو يسير تحت المطر، وأن الماء الذي بلل ملابسه تغلغل إلى أبعد من جلده، شعر أن روحه قد اغتسلت، وأنه تخفف من شيء ما، شيء غامض كان يثقله. تذكر أنه وكان لا يزال طالبا في كلية الآداب، كان في طريقه الى البيت، وكان المطر قد انهمر دون توقف، كان الوقت خريفا وقد ارتدى معطفا واقيا من المطر كان قد اشتراه خلال رحلة جامعية من محل لبيع البضائع المهربة في خانقين، فقرر أن يقطع المسافة إلى باب المعظم ماشيا. لكن سيارة توقفت وأطل منها جار له، فتح له الباب وعرض عليه أن يمضي به إلى البيت. صعد إلى

السيارة، ولم يجرؤ أن يقول لجاره أنه يريد أن يقوم بنزهة في المطر، فربما اعتبره معتوها أو دعيا يريد أن يلفت النظر بسلوكه الغريب.

* * *

ما من مكان آمن يستطيع أن يمكث فيه دون خوف. وصل شارع الرشيد ووجد نفسه على رصيف مزدحم بالمارة فشعر بالضيق، مثل هذا المكان المزدحم لا يقل خطرا عن شارع خال تماما. ماذا لو فكر رضوان بأن ينسل بين المارة، يوجه إليه الطعنة القاتلة ويتابع السير كما لو أنه واحد من المارة الغفل، أو يطلق عليه رصاصة من مسدس مزود بكاتم للصوت من مسافة قريبة جدا، سيحمل المسدس في كيس ورقي مثلا فلا يلاحظه أحد، كيس ورقي، هو ذاك، عرف أنه الطريقة الأكثر أمانا حين مر به صديق ذات يوم، شرب الشاي معه في مكتبه، وحين نهض مودعا سأله قبل أن ينصرف: هل تعرف ما في هذا الكيس؟ لم يكن يعرف بالطبع. قال الصديق، وكان يعمل محاسبا في إحدى الدوائر الرسمية: «رواتب الموظفين، سحبتها قبل ساعة من المصرف. لن يخطر لأحد أنني أحمل في هذا الكيس مبلغا كبيرا من المال، وهكذا فأنا لا أحتاج إلى من يرافقني أو ينقلني في سيارة رسمية.» ربما تخطر هذه الفكرة لرضوان أيضا. وحين يكون هو قد سقط على الأرض ميتا يكون رضوان قد دخل أحد المحلات القريبة، ودس سلاحه على رف تتكدس فيه البضائع أو

في جيب سترة معروضة للبيع، سيتظاهر بأنه يجرب سترة لشرائها، سيختار سترة أخرى بالطبع، يهرع إليه البائع محاولا تقديم المساعدة له، لا يعرف أي سترة يختار، يتجه البائع إلى السترة التي وضع فيها المسدس، يقول له قبل أن يقترب منها، كلا، لا أفضل هذا اللون. لو كانت هناك حاوية قمامة لتخلص من سلاحه بسهولة، كما يحدث في الأفلام. تسارعت خطاه مع تدفق هذه الأفكار دون أن ينتبه، حاول أن يصل إلى مكان أقل زحمة، لكنه ما كان يفلت من كتلة من الناس تتجمع على الرصيف الضيق حتى يجد نفسه وسط كتلة أخرى. فجأة سطع وجه قتيبة في مواجهته: «إلى أين؟»

«إلى البيت.»

بدا له ظهور قتيبة المفاجئ طوق نجاة ألقي إليه من حيث لا يعلم. شعر بالارتياح وهو يسير إلى جانبه، وكان الرصيف لا يزال مكتظا كما هو الحال دائما في ساعات المساء المبكرة، تبادلا الأخبار، نقل كل ما فات الآخر منها وتحدثا عن زيادة سطوة التلفزيون، واتفقا على أن ذلك لا يدعو إلى الانشراح. فجأة مزق كسل المشهد شخص يجري على الرصيف المقابل، دفع شخصين كانا يسدان الطريق عليه وتابع الجري شاقا طريقه بصعوبة بين المارة، ثم تبعه عسكريان جريا في أثره حتى ظفرا به، وانهالا عليه ضربا، وتجمع بعض المارة يراقبون المشهد وسُمع إيضاحٌ تداوله أكثر من واحد: هارب من الجندية. وانضم أحد المتفرجين إلى الجنديين وشرع يضرب الشاب، ولم

يتدخل أي شخص لتخليصه من الضربات التي تلقاها على رأسه وظهره. جرجراه بعد ذلك إلى سيارة جيب عسكرية كانت تقف غير بعيد من المكان. بعد دقائق عادت الحركة المتثاقلة إلى الرصيف.

حين وصلا ساحة الشهداء توقف قتيبة وقال: سأودعك هنا، لدي بعض الالتزامات الصغيرة التي لا بد من إنجازها. رآه حسن التمار يلتفت إليه ملوحا بعد أن عبر الشارع إلى الجهة المقابلة. ووجد نفسه مرة أخرى وحيدا في زحمة الرصيف، فحسم أمره واستوقف سيارة أجرة تقله إلى البيت، تنبه وهو يجلس في المقعد الخلفي إلى أنه قد استخدم سيارة للاجرة أربع مرات خلال الأسبوع، وهو ما لم يكن يسمح به لنفسه في الماضي، لأن من شأنه أن يبهظ وضعه المالي.

* * *

تحدثنا في هذا المساء في المقهى عن المعرفة والوعي. «إنه عبء علينا أن نحمله ببسالة»، قال رياض بنبرة واثقة.

«ما مقدار الشجاعة التي يحتاجها المرء ليعيش حياته بوعي؟» تساءل حسن، وهو يصغى إلى صوته الداخلي يهمس له: سأعلمك الريبة وليس اليقين، لأن اليقين هو نهاية الطريق أما الشك فهو بداية البحث. تعلم الريبة، هذه الريبة التي ستقوده إلى نهاية الطريق.

وإستشهد قتيبة بقول ريجيه دوبريه «إن وعيا مشحوذا أكثر مما

ينبغي، يصبح إذا طال الزمن شفرة مدية ماذا يفعل بها المرء إن لم يوجهها إلى نفسه؟»

قال هشام وقد جعله السكر مشاكسا:

«ومن أين لك أن تعرف أنه قال هذا.»

«إنه ورد في كتابه 'مذكرات برجوازي صغير بين نارين وأربعة جدران'.»

«هل قرأت الكتاب بالفرنسية؟»

«لكنه مترجم إلى العربية.»

أوضح هشام:

«حين نقرأ كتابا مترجما فإننا نقرأه على أنه ما كتبه المؤلف، ولا يراودنا الشك بأن المترجم ربما أضاف إليه جملة من تأليفه أو أدخل فيه مقطعا من كتاب آخر كما يفعل طفل مشاكس وهو يستنسخ النص المدرسي لأنه يعرف أن المعلم لن يقرأ النص المستنسخ، وأنه سيلقي عليه نظرة سريعة وحسب، ويقيمه على أساس نظافته وجمال خطه.

أنا نفسي فعلت هذا كلما شعرت بالضجر من استنساخ النص من الكتاب المدرسي. ولم يحدث أن اكتشف المعلم أنني استبدلت فقرة أو أخرى من النص بغيرها من كتاب آخر. كنت أمعن في المشاكسة أحيانا فأكرر كتابة الفقرة أكثر من مرة، ولم ينتبه المعلم مرة إلى أن النص المستنسخ في دفتري أطول مما هو في دفاتر غيري من التلاميذ.»

«يا لك من ولد مشاكس.» قال قتيبة. وأضاف موضحا: «في حالة الكتب المترجمة ثمة شخص ثان يراجع الترجمة، يمكن اعتبار هذا ضمانا لصحتها.»

«هل تصدق ذلك حقا؟ تضع الكثير من دور النشر عبارة راجعه فلان الفلاني دون أن يكون هذا الفلان قد قرأ الكتاب.»

* * *

حين وصل فلاح إلى المقهى وانضم إلى مائدتنا حل صمت متوتر أنهى الجدل. لم يكن أي منا يشعر إزاءه بالود أو الحماسة. وكان يدرك ذلك تماما. لكنه كان يستمد جرأته من شعوره بالتفوق، لأن أباه كان مديرا عاما في إحدى المؤسسات وكان التلفزيون يستضيفه، يستضيف الأب، في هذه الندوة أو تلك. كان فلاح قد عاد قبل أيام من بيروت، وربما خالجه شعور بأنه قد اكتسب بذلك شيئا من الجاذبية. كانت الدولة قد قررت السماح لمن يريد من موظفيها بالالتحاق بالمقاومة الفلسطينية واعتبار ذلك إجازة عادية. وكان فلاح قد أنهى دراسة القانون وجرب عمل المحاماة في مكتب أحد المحامين المعروفين، لكنه لم يحقق النجاح الذي تمناه فترك المكتب وحصل على عمل في إحدى المؤسسات. كان يشعر أنه جدير بالقيام ببطولة ما، ولكن دون خسائر. وكان يريد أن يحافظ على نوع من التوازن بين البطل وبين رجل الأعمال الناجح ليكون جديرا بأبيه. لكنه اكتشف بعد إقامة شهرين في معسكر للتدريب أن الحياة أقل إثارة

مما كان يعتقد فعاد إلى عمله، وقد استطاع أن يعود من رحلته إلى بيروت بمسدسين باعهما بربح صغير.

جاء هذه المرة بمجلة صغيرة فتحها على صفحات الوسط ووضعها أمامنا دون كلمة، ألقيت نظرة على المقال ولم أفهم ما يمكن أن يكون مثيرا فيه لكنه قال بثقة: إقرأ. إنه حديثكم. قرأته ودفعته إلى قتيبة ومالك.

لم يتذكر أي منا أنه قال كلمة مما هو مكتوب في البداية. لكننا حين قرأنا أن أحدنا قال إن المرء لا يستطيع التعرف على بلد غريب من خلال سفرة سياحية، يمكث في ذلك البلد أسبوعا أو اثنين، يتجول خلالهما في الأسواق، ويشتري ما يعتقد أنه لن يجده في بلده، ويتنقل بآلة التصوير ليسجل وجوده في الساحات العامة وأمام النصب التذكارية. إنه يستطيع أن يتحدث بالتأكيد عن البضائع المعروضة في الأسواق، ولكن ليس عن البلد، ليس عن الناس، عن طرق العيش، عن المشاكل اليومية. معرفة بلد ما تحتاج إلى وقت أطول بكثير مما تسمح به رحلة سياحية قصيرة، لم نستطع إنكار ما كتب. تعرفنا على بعض ما كنا قد تحدثنا به، وكان علينا أن نبذل جهدا أكبر لنتذكر البعض الآخر، وبدا ما تبقى مجرد ثرثرة عادية بين أصدقاء.

أصبح واضحا لدينا أن من سجل الحديث هو الشاب الذي كان يأتي بين حين وآخر وينضم إلى حلقتنا، يصغي إلى أحاديثنا مثل تلميذ يصغي إلى معلميه، نادرا ما تكلم، وكان أحيانا يدفع حسابنا بسخاء في آخر الجلسة. ربما كان هذا ثمن قبوله في

حلقتنا. لم يصبح صديقا لأي منا، ولم نكن نعرف عنه أكثر من إسمه الأول وأنه يعمل في نشرة صغيرة تصدرها إحدى الدوائر الرسمية كان يصر على تسميتها جريدة. كان قد تعرف على محررة في مجلة نسائية، وقد ذكرت له مرة أنها تريد أن تكتب شيئا عما يتحدث به الرجال في مجتمعاتهم المغلقة، في غياب النساء، لكنها لا تعرف كيف تحقق ذلك. وجد الشاب ذلك فرصة للتقرب منها فتطوع أن يسجل لها مثل هذا الحديث. ما أهمية ذلك؟ إن المرء يتفوه بآلاف الكلمات في اليوم، كلمات قد تعني أمرا أو نهيا، رغبة أو نفورا، موافقة أو رفضا، وقد لا تعني شيئا على الإطلاق. يتحدث الآخرون عن تعب أجسادهم، عن الأمراض والأدوية، عن الأطفال والنفقات، عن الأصدقاء والأعداء، نحن نتحدث في حلقة الأصدقاء عن آخر ما صدر من الكتب، عن المشاكل الكونية، عن متاعبنا المهنية وأحيانا عن خططنا ونوايانا. قرأنا المقال حتى الكلمة الأخيرة ولم يشعر أي منا بالغضب كما توقع فلاح. أغلقنا المجلة وعدنا إلى حديثنا فطواها فلاح وأعادها إلى محفظة الأوراق التي كان يحملها. نهض بعد دقائق، ودعنا وغادر المقهى.

* * *

لم يعثر حسن التمار على رضوان في مقهى «نجمة الصباح» رغم أن زيارته تكررت مرات خلال الأسبوعين الأخيرين. ولم يجرؤ على السؤال عنه إلا في الزيارة الأخيرة. حين أحضر النادل

الشاي، استمهله وسأله: ثمة رجل كان يحضر إلى هنا بين حين وآخر، في حوالي الأربعين، بشارب كث وشعر قصير، كان يجلس على تلك الطاولة غالبا.

هنا أشار إلى الطاولة الأخيرة في الجهة البعيدة عن الواجهة الزجاجية. قال النادل: آه، رضوان. إنني لم أره منذ أسابيع.

شعر بالضيق وهو يستعرض محاولاته العديدة للعثور عليه في المقهى أو في موقف للسيارات مزدحم بالناس. يصبح كل شيء مضطربا الآن. لماذا كان العثور عليه سهلا في البداية،

سيتابع البحث عنه على أية حال.

* * *

أفاق هذا الصباح متأخرا، بقي في الفراش قرابة نصف ساعة قبل أن يحسم أمره وينهض، وكان لا يزال يشعر بالنعاس. سيكون أمامه نهار طويل دون واجبات. سيذهب في المساء لزيارة عائلة لا يعرفها. طلب منه صديق أن يقوم بهذه الزيارة. أن يكون وسيطا لحل مشكلة عائلية. أعطاه العنوان. ستجد أباها في البيت مساء، تحدث معه، إنه قد يلين حين تقدم له نفسك كصحفي، ربما كان يعرفك من خلال بعض صورك المنشورة في الصحف. لم يخطر له أبدا أن يكون وسيطا في قضايا شخصية تماما، وقد فكر طويلا في الحجج التي سيقدمها دفاعا عن الزوج الشاب، صديق صديقه الذي كلفه بالتدخل.

قطعت طرقة على الباب عليه تأملاته، نهض ففتحه. كانت

الجارة. جاءته برزمة صغيرة جاء بها أحدهم أمس في غيابه، فتركها لديها. حين كان يتجه بالرزمة ليضعها على المنضدة كانت الجارة قد دخلت الصالة من غير دعوة ووقفت تروز المكان بعين فاحصة. قال لها شكرا. شعر بتعب يداهمه فجأة فألقى بنفسه على الأريكة وأغمض عينيه. لاحظت الجارة الغبار المتراكم على المنضدة، وهو ما كانت تلاحظه دائما، فأحضرت خرقة من المطبخ وشرعت بإزالة الغبار. «لا أستطيع أن أرى شيئا كهذا دون أن أفعل شيئا.» قالت ذلك بصوت كان سيسمعه لو لم يكن قد سقط في النوم. أعادت خرقة المسح إلى المطبخ ثم غادرت المنزل وأغلقت الباب وراءها.

حين حل المساء أخيرا، ووصل الشارع الضيق وسط المدينة كان عليه أن يعود إلى الخريطة التي رسمها له صديقه ليهتدي إلى البيت، دخل الزقاق الذي يرتفع عن الشارع العام فوجد نفسه في أزقة ضيقة تتشعب وتتداخل، وكان عليه أن يتبين موضع قدميه على الأرض الترابية في ظلمة المساء، في هذه المتاهة. إضطر أن يقرع أحد الأبواب ويسأل عن فلان الفلاني. وصل أخيرا، وقف أمام باب منخفض، دق عليه بظاهر يده متهيبا، ثلاث ضربات متتالية، فتح رجل الباب، قدم نفسه: أنا مبعوث عن فلان. لم يبد على الرجل الانشراح، لكنه دعاه للدخول. قاده إلى حفرة يضيؤها مصباح نفطي. لم يخطر له أنه يمكن أن توجد مثل هذه الحفر التي لم تصلها الكهرباء والتي تسمى مساكن قسرا في مدينة كبيرة مثل بغداد. مرت الدقائق الأولى دون أن تقال كلمة واحدة.

لم يعرف كيف يبدأ حديثه، لم تسعفه كل الكلمات التي بدت له في الغالب مطاوعة سهلة المنال وهو يكتب تقاريره الصحفية، لم يجد فيها كلمة واحدة، عبارة واحدة يمكن أن تقال بوضوح وثقة، ثم وجد أخيرا الجملة التي يبدأ بها، أظنك تعرف ما الذي جئت من أجله؟ ولم يكن من الصعب على الرجل التكهن بالموضوع، فهو لا يستقبل كل يوم زوارا غرباء. وإذا كان حسن قد زاره دون معرفة سابقة فلا بد أنه جاء بطلب من صهره. إنه يشعر بالضيق من مثل هذه الزيارات، لكنه لا يستطيع أن يصفق الباب في وجهه. تحدث حسن عن صديق صديقه الذي لا يعرفه، وأسهب في الإطراء عليه، لكن الرجل لم يبد اللين الذي أمله، فغادر المنزل بعد أن أرغم نفسه على شرب الشاي الذي قدم له. وأدرك في هذه اللحظة أنه أخطأ بقبول التماس صديقه بالمجيء إلى هنا وهو لا يملك حجة يمكن أن يدافع بها عن رجل لا يعرفه، وأنه يرغم نفسه على القيام بأفعال كان الحري به أن يرفضها. كان عليه أن يتعلم قول لا بدلا من أن يضع نفسه في مواقف لا يحبها، ويضيف إلى إخفاقاته الكثيرة إخفاقات أخرى.

* * *

إنضم إلينا هذا المساء ومن غير دعوة منذر البدير، لم يكن صديقا لأي منا، إلا أننا كنا نعرفه كواحد من الذين يعملون في الجريدة. كنا نقصده في قسم الأرشيف بين حين وآخر للبحث عن صورة شخص استوزر أو وزير أُقيل أو اختيار صورة لشاعر

ورد ذكره في مقال أو لفنان عاجلته المنية التي تعاجل الناس دائما حتى وهم في التسعين. لا أدري متى ومن همس لنا بأنه يتعامل مع الفرقة الأمنية في الجريدة، وهي فرقة غير معنية بأمن الجريدة أو العاملين فيها حقا وإنما بالوشاية بمن نقل خبرا لا يتوافق مع سياسة الحكومة أو روى طرفة تحتمل أكثر من تفسير. كان قد قصد المقهى وعثر علينا صدفة كما يدعي، بدا في مزاج طيب وظل يثرثر دون توقف، ولم يوهن عزيمته الصمت الذي جوبه به حديثه، فأراد أن يثير دهشتنا، تحدث عن طيار سقط مسمار لولبي من ماكنته فأدخل إصبعه في موضع المسمار. حين هبطت طائرته كان إصبعه قد اهترأ، لكنه احتمل الألم وهو يدرك أنه أنقذ الطائرة بركابها من كارثة محققة. قال هشام بلهجة لا تطابق ما توقعه منذر: هل سبق لك أن رأيت حجرة قيادة الطائرة، وانتابت مالك القسري نوبة سعال، بدأت خفيفة ثم أصبحت أكثر ضراوة حتى أن هشاما قطع حديثه ودفع بقدح الماء أمامه: إشرب قليلا من الماء. فرد مالك، أعتقد إنني بحاجة إلى ماء ساخن، الماء البارد سيزيد الحال سوءا، فنهض هشام وتوجه إلى مطبخ المقهى، وحين عاد بكوب الماء الساخن، كنا قد نسينا الطيار وقصة البطولة التي لم تصادف حماسا من قبل أي منا. وكانت نوبة السعال التي باغتت مالك قد هدأت حتى قبل أن يشرب الماء الساخن. ولأن شخصا مثل منذر يعرف حلا لكل معضلة ودواء لكل مرض فقد قدم سلسلة من النصائح لتجنب الإصابة بالبرد. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة بقليل فاتفقنا أن نطلب عشاءنا،

لكن منذرا نهض قبل أن يحضر النادل وقال إنه لا يستطيع أن يتأخر أكثر من ذلك لأن شخصا ينتظره في مكان آخر. وحين كان قد غادر المقهى إلتفت مالك إلى هشام وقال: كان عليك أن تكون أكثر حذرا. وأصبح واضحا لنا أن نوبة السعال كانت الطريقة الوحيدة لإنهاء الحديث وتجنب الوقوع في الفخ. في هذه اللحظة ارتفعت ضحكة مجلجلة في المقهى المجاور الذي يرسم حدوده سياج خشبي منخفض وحوض زهور لن تتفتح هذا الصيف لأن الأعشاب تنمو بسرعة أكبر ولأن البستاني الذي زرعها في الربيع لم يعد يعنى بها وأصبح لا يأتي إلا لقص العشب، ارتفع لهيب الحطب وسط حلقة من سمك البني وكان يسمع أزيزه بين حين وآخر حين تقطع لحظات من الصمت الحديث، وترتفع سحابة دخان تنشر معها رائحة الشواء في الجو.

* * *

لم يكن تخلف مالك القسري عن حلقة الأصدقاء مفاجأة، فقد أطلعنا على ما استجد في حياته منذ أن تطوع ضمن عدد من منتسبي النادي الرياضي الذي ينتمي إليه لمرافقة وفد رياضي قادم من اسبانيا. كان هو أحد المتطوعين. وجد في هذا العمل الطوعي متعة كبيرة، وتعرفنا من خلاله على ساندرا سولارتا، السباحة التي تعلق بها رغم أن إقامة الوفد كانت قصيرة لم تزد على أربعة أيام. كان بينهما ما هو مشترك، فهو لم يتوقف عن ممارسة رياضة السباحة منذ صغره. وكان قد روى لي أن أمه يوم

كان طفلا، ربما كان قد بلغ الخامسة يومذاك، وكانت عائلته تسكن في الأعظمية في منطقة قريبة من النهر كانت تربط كاحله بحبل وتتركه يسبح في ماء النهر، وأنه كان في مرحلة ما قد شارك في بعض المسابقات المحلية، ثم لم تعد هذه المسابقات تستهويه، لكنه لم ينقطع عن السباحة في أي وقت.

لم نر الشابة بالطبع لكننا رسمنا لها صورة واضحة بهذا القدر أو ذاك من خلال حديثه عنها. بادلته ساندرا الود، وحين عادت إلى بلادها أرسلت له رسالة مكتوبة بانكليزية بسيطة. لم يقل إنهما اتفقا على مشروع مشترك لحياتهما، لكنه أخبرنا ذات يوم أنه ينوي السفر للالتحاق بها. حصل على سلفة الموظفين التي سيسددها من رواتب ما تبقى من إجازاته بعد سفره. وحين جاء لتوديعنا في المساء الأخير قبل سفره كانت بطاقة السفر في جيب قميصه. شربنا في ذلك المساء حتى الثمالة، وحاولنا أن نصالح بين حزننا لفراق صديق أحببناه وفرحنا لأنه سيفلت من حياتنا الراكدة ويقبل على حياة أكثر بهجة.

حين التقينا في اليوم التالي، تحدثنا عنه، عن الصدفة التي ستغير حياته، تحدثنا عن اسبانيا ونسينا ساندرا سولارتا ولم ننتبه إلى الفراغ الذي تركه إلا في الأيام التالية. ثم وصلت رسالة منه تؤكد سعادته بحياته الجديدة، قال إنه اتخذ القرار الصحيح بسفره، وأبدى دهشته من خضرة المدن وقد ظن قبل ذلك أن المدن الصناعية مدن بلون الرماد. ثم وصلت منه رسالة ثانية قال فيها: «لن أعود إلا في كفن». وشعرنا بالسعادة لأن واحدا منا

وجد طريقه إلى السعادة. انقطعت رسائله بعد ذلك وبعد أربعة أشهر كتب يلتمسنا أن نسأل عن إمكانية عودته إلى عمله إذا ما عاد. عندها أدركنا أن ثمة تغيراً قد تسلل إلى حياتنا جميعا دون أن ننتبه، وأننا لن نكون قادرين على فتح الباب الذي أوصده خلفه مهما بذلنا من محاولات، وأن عليه أن يتدبر أموره حيث يقيم. وهكذا كان.

* * *

حين وصل رضوان شارع النضال لاحظ أن سيارة شرطة تقف أمام العمارة التي يسكن في واحدة من شققها فانتابته رعدة، لم يتوقف وإنما تابع السياقة، كان يريد الابتعاد عن المكان أولا قبل أن يفكر في احتمال أن يكون حسن التمار هذا قد نصب له فخا، ربما كان يريد أن يستخدمه من أجل كتابة مادة صحفية مثيرة، ربما فكر أنه من خلال اتفاقه معه سيكتشف شبكة من القتلة المأجورين، هذه الشبكة التي لا وجود لها. ما كان له أن ينساق إلى عرضه. استعرض سلسلة الأشخاص الذين قادوه إليه، هل يمكن أن يكون أحدهم قد تواطأ معه؟ استعرض علاقته بهم واحدا واحدا، لا يشك في إخلاصهم. إنتبه إلى أنه قد ابتعد كثيرا، ترك سيارته في صف من السيارات المركونة إلى جانب الرصيف ودخل المقهى، طلب شايا، لم يشرب منه إلا نصفه، شعر بالقلق فنهض. توجه إلى السوق القريب، كان بحاجة إلى أن يستعيد القدرة على التفكير في هدوء، قضى ساعة في التجول، عاد إلى

سيارته، كانت الساعة قد قاربت الرابعة عصرا. قرر أن يعود إلى منزله، حين وصل البناية لم ير أثرا للشرطة، دخل محل بيع الأجهزة المنزلية، وكان يعرف صاحبه بحكم الجيرة الطويلة. تظاهر بأنه يلقي نظرة على المعروضات. قال صاحب المحل من غير أن ينتظر سؤالا، كنت أريد أن أذهب بعد الظهر لإحضار بعض المراوح، لكن ذلك الحادث أخرني. أي حادث؟ سأل رضوان متصنعا الدهشة. اصطدمت سيارتان بعد ظهر اليوم، مجرد صدمة خفيفة، لكن الغضب استبد بسائقي السيارتين، صاح أحدهما بوجه الآخر واشتبكا بالأيدي، حضر رجال الشرطة وأنهوا الخلاف. حسنا ربما استطعت أن أرسل في الغد أحدا لإحضارها. ارتفعت الحرارة منذ الآن، وهو الوقت المناسب للبيع.

أدرك أن خوفه كان في غير محله، فشعر بالتخفف بعض الوقت. لكن القلق عاوده حين دخل شقته. راجع الاحتمالات العديدة والمخاطر التي يمكن أن يواجهها، وقرر أن يعمل ما في وسعه لتجنبها. أن يسرع بتنفيذ الاتفاق، ثم يفكر فيما إذا كان عليه أن يخلع جلد رضوان ويستعيد اسمه. يستطيع الآن أن يكسب من عمله كمالك لسيارة اجرة ما يكفي للعيش.

* * *

كنت أول من وصل المقهى هذا المساء، وما كاد يمضي على جلوسي عشرة دقائق حتى مر فلاح أمام مائدتي، توقف فجأة وكأنه بوغت بوجودي، ربما كان ذلك مجرد حركة تمثيلية

متعمدة، وسألني إن كنت أسمح له بالجلوس، وجلس دون أن ينتظر جوابي. قال: إنك تجلس وحدك كما أرى؟ فقلت له إنني وصلت مبكرا هذا المساء وسيأتي الأصدقاء بعد قليل بلا ريب. قال لكن هشام لن يحضر هذا المساء. سألته: وما أدراك أنه لن يحضر. قال بثقة: لأنهم ألقوا القبض عليه صباح اليوم. وكيف عرفت؟ لقد عرفت وكفى، ألا تصدقني؟ كان فلاح يحاول أن يتظاهر بتلك الطريقة بالأهمية. وكان يتنقل بين مجموعات مختلفة من الناس يتسقط الأخبار لينقلها، مؤملا أن يجد من خلالها اهتماما بشخصه. لم يكن ذلك مستبعدا على أية حال، فربما قال هشام شيئا في حالة السكر، فوشى به واحد من المخبرين المبثوثين في كل مكان. وصل قتيبة بعد ربع ساعة، قال إنه إلتقى رياضا في المكتبة، وإنه لن يتأخر كثيرا. أتى النادل بالشاي الذي كان فلاح قد طلبه، فشربه في عجالة، دفع حسابه، وغادر المقهى. كان يعرف أنني سأنقل الخبر عنه إلى الآخرين.

أثار الخبر شيئا من الانزعاج وربما الخوف لدى الأصدقاء. إقترح قتيبة أن ننتقل إلى مقهى آخر، أو أن نكف عن الحضور إلى المقهى بعض الوقت. وبعد مناقشة وجدل اتفقنا على أن ذلك سيعتبر دليلا على أننا نضمر شيئا ضد السلطة، فيضعنا موضع الشبهة، الأفضل إذن أن نلتقي كما نفعل عادة وكأن شيئا لم يحدث. فنحن في الآخر لا نملك سلاحا نرفعه بوجه السلطة ولا ننتمي إلى مجموعة منظمة أو حزب، كنا مجموعة من الحالمين وحسب. بعد أسبوع فوجئنا بهشام يحضر كما كان يفعل دائما،

ألقى التحية وجلس، متجاهلا نظراتنا المستفهمة قال إنه يريد أن يؤلف كتابا للطبخ. اعتبرنا الأمر مزحة، وسأله رياض كيف كان أسبوعه هناك. قال هناك متحاشيا استخدام كلمة الموقف أو السجن. أجاب وكأنه يتحدث عن نزهة: «عادي». ولم يفلح أي منا في حمله على الحديث عن التحقيقات التي أجريت معه، عن التهمة التي وجهت إليه أو أي تفصيل آخر عن إقامته في مديرية الأمن.

منذ ذلك المساء تغير شيء ما في جلساتنا، أصبح هشام حين يصل إلى المقهى يلقي التحية ويتخذ مجلسه بيننا، يسود الصمت لحظة، تبقى جملة كان قد بدأها أحدنا مبتورة، لا أحد ينتظر بقيتها، لا أحد يسأل وماذا حصل بعد ذلك؟ تتكرر الأسئلة الباهتة: كيف الحال؟ هل كنت في المكتبة؟ هل كتبت شيئا جديدا؟ وتبقى أسئلة كثيرة مضمرة لا يجرؤ أحد على النطق بها. حين يقع أحد ما في قبضة الأمن، ثم يطلق سراحه دون جروح منظورة يصبح موضع شك في أنه أعطى وعدا بالتعاون. ربما يكون هشام قد انتبه إلى هذه الريبة، هذا الحذر في اختيار موضوع الحديث وفي طرح الأسئلة والبحث عن أجوبة لها. لكننا لاحظنا أننا حين كنا ننسى حذرنا أحيانا، ونقول ما لا ينبغي أن يقال في العلن، نقترب من موضوع سياسي أو نبدي ملاحظة ناقدة ينهض، يقول معتذرا إنه سيذهب ليرى ما يمكن أن يتناوله من الطعام، أو لشراء علبة سيجائر ويمضي مبتعدا، فينظر مالك إلي دون أن يقول شيئا. وحين نكون وحيدين في الطريق إلى

منازلنا عند منتصف الليل يقول لي: «هذا أفضل ما يستطيع عمله. حين لا يكون قد سمع ما تحدثنا به لن يستطيع أن يكتب شيئا في تقريره. ولن يستطيع أحد أن يتهمه بالتقصير.

بعد أيام وكان هشام قد استعاد اطمئنانه تحدث من غير أن يسأل عن طبيب إسمه فوزي كمال زاره أكثر من مرة وطلب منه أن يرسم ما يخطر له.

سأله قتيبة: وماذا رسمت؟ «رسمت كل ما خطر ببالي، أشجارا، بيوتا، أشخاصا يسيرون في الشارع. أنت تعرف أنني لا أملك موهبة كبيرة في الرسم. رسمت كما يفعل الأطفال.»

تذكرت في الحال حادثة قديمة. كنت أنوي الذهاب مع صديق إلى سينما النصر. كان يعرض فيها فيلم الإخوة كارامازوف، إقترح علي الصديق أن أمر به في عيادة طبيب نفسي في شارع السعدون لنذهب معا لمشاهدة الفلم حين يكون قد انتهى من الجلسة الأسبوعية، ورغم أنه لم يثق كثيرا بجلسات الاستماع التي ينظمها له الطبيب، إلا أنه كان بحاجة إلى دواء يصرفه عن الخوف الذي أصبح يلازمه منذ شهور، منذ أن استوقفته عند منتصف الليل سيارة للشرطة، سئل أين يذهب في هذا الوقت من الليل، قال إنه عائد إلى البيت، عرض عليه الشرطيان أن يحملاه في سيارتهما إلى منزله. لكنه شكرهما وأكد لهما أن المسافة ليست طويلة وأن الطريق لا يستغرق سوى دقائق. أصبح منذ ذلك الوقت يتجنب المرور في ذلك الشارع إذا

تأخر الوقت، ويشعر بالخوف حتى في فترات بعد الظهر حين يشتد الحر في الصيف وتخلو الشوارع من المارة. في البدء لم يكن هذا الخوف ناشئا عن وهم، لكنه تحول إلى حالة مرضية، أصبح يسمع وهو يجلس إلى مكتبه خلف النافذة المطلة على الشارع من ينادي إسمه، فيقترب من النافذة متوجسا، لكنه لا يرى أحدا يعرفه أو حركة تثير الشبهة. ثم أصبح يتجنب النظر من النافذة طول ساعات عمله. ظل يجلس إلى مكتبه، ظهره إلى النافذة، يتابع قراءة ما يتعين عليه قراءته، وكتابة الرسائل الرسمية التي سيحملها الفراش إلى شعبة الطابعة، وتدقيق ما يعاد إليه بعد طبعه قبل أن يقدم إلى المدير لوضع توقيعه عليه. إعتقد أن الأقراص المهدئة التي سيمكنه الطبيب من الحصول عليها يمكن أن تخفف من وطأة هذا الخوف. اقترح عليه الطبيب جلسات استماع يجريها له مرة في الأسبوع، فوجد الأمر مسليا. «على هذا النحو أستطيع أن أكتب رواية ممتعة عن شخص يزور طبيبا نفسيا، بعد وقت قصير يجري تبادل للأدوار، يشرع المريض بطرح الأسئلة ويروي الطبيب مشكلاته التي تبدو أكثر تعقيدا وتجارب طفولته المؤلمة.»

قلت: أظن أنني قرأت شيئا مشابها، أو ربما كان فيلما يجري فيه تبادل الأدوار على هذا النحو. قال: لا أهمية لذلك، سنرى كيف تتطور العلاقة بيننا، المريض والطبيب، على أية حال، وربما كتبت قصتي أنا. في البدء سألني عما أتذكر من أيام طفولتي. قلت له إنها طفولة عادية.

«ماذا تعني بطفولة عادية؟»

«ليس فيها ما يمكن أن يُتحدث عنه.»

«حسنا، إنها عادية من وجهة نظرك اليوم. ولكن وقائع صغيرة تبدو الآن عادية تماما يمكن أن تكون قد أثرت فيك في الطفولة، لعلها تؤثر في حياتك اليوم أيضا دون وعي منك.»

قلت: «لا أدري.»

سأل: «هل لك إخوة؟»

«نعم.»

«كم عددهم؟»

«ثلاثة.»

«كيف كانت علاقتك بهم؟»

«علاقة عادية.»

«ماذا تقصد بعلاقة عادية.»

«أقصد علاقة عادية، كما هي العلاقة بين الإخوة.»

قال: إنك لا تريد أن تتحدث. لندع هذا الآن وننتقل إلى موضوع آخر. ربما ساعدك هذا في التذكر. ولكن عليك أن تسترخي أولا. والآن، أين قضيت فترة الصباح؟

«في محل عملي.»

«أين ذهبت بعد ذلك؟»

هنا انتابتني رغبة في المشاكسة. قلت: لم إذهب إلى أي مكان.

قال: هذا ليس جوابا.

قلت ممعنا في المشاكسة: هل تستطيع أنت مثلا أن تقول أين ذهبت بعد ظهر اليوم قبل أن تأتي إلى العيادة؟ باغته سؤالي فقال بنفاذ صبر ولأنه لم يكن يريد أن يخسر الجولة للمرة الثانية: طبعا. ذهبت إلى البيت لتناول غدائي والاسترخاء قليلا.

«وماذا احتوت وجبة غذائك؟»

«قطعة من اللحم وشيئا من الخضار.»

«فقط؟»

«ورغيف خبز.»

«وماذا فعلت بقية الوقت؟»

«قرأت.»

«ماذا قرأت؟ جريدة أم مجلة أم كتابا؟»

«جريدة.»

«أي جريدة؟»

هنا انتبه إلى اللعبة التي استدرجته إليها وأدرك أنه على وشك أن يكشف عن نفسه أكثر مما ينبغي، فقال غاضبا: أنا الطبيب، أنا من يوجه الأسئلة هنا. ثم انتبه إلى أنه يوشك أن يفقد زبونا وأن عليه كطبيب أن يتحلى بالصبر. نهض واقفا ومشى خطوتين باتجاه النافذة ثم أضاف بلهجة أقل حدة محاولا إخفاء تكدر مزاجه: لا أظن أننا نستطيع أن نحقق تقدما كبيرا هذا اليوم. سنكتفي بهذا القدر. دع السكرتير يحدد لك موعدا للجلسة القادمة.

قال صديقي: أنا لا اومن بالتحليل النفسي. إذا كان تذكر

طفولتي سينفعني في شيء فإنني أستطيع أن أتذكرها وحدي، وحتى الأحداث غير السارة في حياتي، أستطيع أن أستعيدها برباطة جأش وإذا شعرت بحاجة إلى الحديث عنها فسأتحدث عنها لصديق وليس لشخص لا أعرفه. في الجلستين التاليتين تحدثت بإسهاب عن طفولة تعيسة لا علاقة لها بطفولتي، عن أب شديد القسوة، يضربني كلما أخفقت في حل مسألة حسابية أو أخطأت في الإملاء، رغم أن أبي كان قد مات وأنا لم أبلغ الثالثة من عمري، اكتشفت قدرتي على اختلاق التفاصيل ووجدت في ذلك تسلية أول الأمر، كنت أمضي في السرد ولن يعرف أحد ما هو الواقعي وما هو المتخيل في القصة. لكنه كان يعود دائما إلى نفس الأسئلة التي لم أجب عنها. لم أكن مستعدا للإجابة على أسئلته، ولم يكن من الغفلة ليستمر في اللعبة التي استدرجته إليها. كان كل منا يقاوم الآخر. وفقدت الرغبة في متابعة اللعبة. كنت قد حددت موعدا جديدا، لكنني لم أذهب لا في ذلك الموعد ولا بعد ذلك.

لكن صديقي لم يكتب روايته، انتقل إلى بيروت ووجد عملا كمصحح في واحدة من صحفها الكثيرة، وانقطعت أخباره. بعد أكثر من سنة تنكشف لي الخيوط المعقدة لشبكة الأمن صدفة، أصبحت شاهدا على غير رغبة مني على طبيب يخون مهنته، يصغي إلى مرضاه في جلسات الاستماع يستدرجهم إلى اعترافات قد لا يحصل عليها ضابط الأمن حتى بالتعذيب.

سافر هشام بعد أسبوع إلى بيروت وكتب إلي أنه يفكر في البقاء هناك: «بيروت مكان جيد للعيش، إنها قلب مفتوح للجميع. لا تقلق. لن أموت جوعا.»

* * *

لم يبق أمام حسن التمار إلا أن يزور رضوان في شقته، أن يقرع الجرس وحين يفتح له الباب، يطلق عليه من المسدس المجهز بكاتم للصوت، ويغادر المبنى بهدوء. لقد فحص الإمكانات الكثيرة، لكنه لم يجد حلا أفضل.

تخيل نفسه يقرع الجرس، فيفتح رضوان الباب ويدعوه إلى الدخول، يجلس قبالته:

سيحاول رضوان أن يخفي دهشته لهذه الزيارة.

«هل آتيك بقدح من الشاي.»

«كلا، شكرا. جئت فقط لأقول لك إنني غيرت رأيي، وإنني أريد إلغاء ما اتفقنا عليه.»

«حسنا، سيكون علي أن أعيد إليك نقودك. لكني لا أستطيع أن أدفعها لك في الحال.»

«كلا، لم آت من أجل النقود.»

«ومع ذلك يجب أن أعيدها إليك.»

«تستطيع أن تحتفظ بها. أعني ذلك تماما.»

«لكني اعتدت ألا آخذ نقودا دون عمل. سأعيدها إليك، في

الأسبوع القادم على الأرجح.» ولأنه يريد أن يؤكد نيته في عدم استعادة النقود لن يسأله أين يمكن لهما أن يلتقيا.

لكن رضوان لا يقترح أيضا مكانا للقاء. أو ربما قال: سأكون يوم الجمعة من الأسبوع القادم في مقهى نجمة الصباح. ألا يمكن أن يكون قد حزم أمره في الحال على أن ينفذ ما سبق أن اتفقا عليه قبل يوم الجمعة، بهذا يكون قد كسب نقوده لقاء عمل. ربما لا يكون الأجر الذي استلمه هو السبب في التعجيل في التنفيذ. فحتى لو احتفظ بالنقود، سيكون قد أودع سره لرجل لا يكاد يعرفه، ستصبح الضحية المحتملة شاهدا. وهو فوق ذلك صحفي. هذا سبب كاف للتخلص منه.

انتهى إلى أنه لن يستطيع أن يلغي اتفاقه مع رضوان بالسهولة التي يعيد بها بضاعة ظهر فيها عيب لم يكن قد انتبه إليه عند شرائها. بل بدا له إلغاء هذا الاتفاق مستحيلا. وإذن لم يبق أمامه إلا الدفاع عن نفسه. عليه أن يستبق الضربة قبل أن تصيبه.

وقف أمام باب شقة رضوان، إحتاج إلى دقيقة أو اثنتين قبل أن يتغلب على خوفه، قرع الجرس وانتظر. أصغى برهافة لكنه لم يسمع وقع أقدام تقترب من الباب. قرع ثانية، وثالثة. لم يعد رضوان إلى منزله بعد. قرع جرس الشقة المقابلة، سيسأل عن منزل شخص ما، سيخترع له اسما. ثم يعتذر عن الإزعاج وينصرف. لم يتلق ردا. قرعه ثانية وانتظر. لا أحد. إنتبه إلى لافتة صغيرة كتب عليها اسم وكالة تأمين. وإذن فلا بد أن وكلاء التأمين قد انصرفوا بعد انتهاء يوم عملهم. إنها فرصته المواتية.

أطفأ ضوء مصباح الممر وجلس على الدرجات إلى يمين المصعد. سينتظر عودة رضوان حتى لو كان عليه أن يقضي ليلته هنا. بقي في نصف الساعة الأولى متنبها، سمع صوت المصعد يتوقف في طابق بعيد، ثم عاد السكون، مضت ساعة لم يسمع خلالها صوتا. لم يعد يفكر في رضوان، فكر في الموضوع الذي سيقترحه في الاجتماع الاسبوعي لهيئة التحرير وشرع يصوغ حججه في البرهنة على أهمية الموضوع، سمع فجأة الصرير الخافت لحبال المصعد وهو يهبط إلى الطابق الأرضي، إنتظر متوجسا، سمع المصعد يتابع صعوده دون توقف، ثم ساد الهدوء من جديد. مرت نصف ساعة أخرى بدت له دهرا، داهمه النعاس، أجفل حين سقط رأسه على كتفه، حاول أن يستعيد وعيه، لكن تعبه وسلطة النوم كانت أقوى من قدرته على المقاومة. سقط في نوم لا يعرف كم استمر. ثم أيقظه صوت المصعد يتوقف، إنتفض فزعا ووضع يده على الزناد.

يشعر الآن أنه يتخلى عما تبقى له من سنوات حياته كما يتخلى زبون عن بقية الورقة النقدية التي دفعها للنادل ثمن وجبة طعامه، سيتخلى هو عن هذا المتبقي رغم أنه ليس قليلا. سيتخلى عن كل المدن التي لم يرها، عن كل البحار التي لم تبحر سفينته فوقها، عن قصص الحب التي لم يعشها، عن الأبناء الذين سيحملون اسمه، عن الدار التي لن يتسنى له بناؤها والشجرة التي لن تنمو ويشتد ساقها أمام عينيه. فما دام كل شيء سينتهي في الآخر، فلينته الآن.